

سُورَةُ الْقَمَرِ

حِينَ يَنْشَقُّ ضَوْءُ الْعَالَمِ
وَلَا يَنْشَقُّ عَنَادُ الْإِنْسَانِ



تَأْلِيفُ: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

سُورَةُ الْقَمَرِ



حين ينشقُّ ضوءُ العالم
ولا ينشقُّ عنادُ الإنسان

تأليف : رَدَّاد السَّلاَمِيُّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ليست سورة القمر سجلاً لأممٍ ماتت، ولا معرضاً لمشاهد العذاب التي انطفأ غبارها في أودية التاريخ، وإنما هي سورة توقظ في الإنسان ذلك الجزء الذي يحاول النسيان أن يميتَه فيه؛ الجزء الذي يعرف أن لهذا العالم موعداً، وأن وراء ازدحام الأيام يوماً تنخلع فيه الأشياء من أسمائها المألوفة، وينشق فيه النظام الذي حسبه الإنسان أبدياً، ويقوم الخلق بين يدي الله وقد سقطت عنهم الألقاب، وتهاوت الممالك، وانطفأت الأضواء التي كانوا يتنافسون عليها، ولم يبق إلا قلبٌ آمن، أو قلبٌ أعرض، وعملٌ تقدّم، وكلمةٌ كُتبت، ولحظةٌ كانت في ميزان الله أثقل من عمرٍ كامل.

تفتتح السورة بالاشفاق القمر، ثم تمضي بنا بين أمواج الطوفان، ورياح عادٍ الصرصر، وصيحة ثمود، وحجارة قوم لوط، وأخذ آل فرعون، حتى يبدو التاريخ كله تحت سلطان قانونٍ واحد: أن التكذيب مهما طال لا يصبر حقاً، وأن القوة مهما تضخمت لا تخرج صاحبها من قبضة الله، وأن الحضارات لا تسقط حين تضعف جدرانها فحسب، بل تسقط أولاً حين يفسد ميزانها الأخلاقي، وحين تستكبر عن سماع الإنذار، وحين ترى الآية ثم تعيد تسميتها كيلا تضطر إلى تغيير نفسها.

وفي قلب هذا الزلزال التاريخي يتكرر النداء الرحيم أربع مرات: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾.

وكان الرحمة تقف بين مصرعٍ ومصرع، وتفتح بابها قبل أن يغلق باب المهلة، وتقول للإنسان: لم أذكر لك الماضين لتستمع بهلاكهم، بل لتنجو من الطريق الذي أهلكهم؛ ولم أنزل إليك القرآن ليكون أثراً مقدساً تضعه فوق الرفوف، بل ليسكن وعيك، ويعيد تشكيل رغباتك، وينقذك من نفسك قبل أن يأتيك ما لا تستطيع دفعه.

إن السورة شديدة الإيقاع، سريعة المشاهد، قصيرة الآيات، ولكن هذا القصر ليس اختصاراً في المعنى، بل هو شبيه بضربات متتابعة على باب القلب، لا تكاد تترك له فسحة

يعود فيها إلى غفلته. وكل آية فيها كأنها قطعة من جرس القيامة، يسمعها الإنسان في زمانه قبل أن يسمع النداء الأخير، لعل الصوت المبكر ينقذه من هول الصوت المتأخر.

وسنسير في هذه الرحلة مع آيات السورة جميعاً، آيةً تلو آية، نقرأ نظمها، ونصغي إلى ظلال كلماتها، ونتتبع خيطها المتصل من انشقاق القمر إلى مقعد الصدق، ومن اقتراب الساعة إلى استقرار المتقين عند ملك مقتدر؛ لأن السورة لا تريد أن تضعنا أمام الخراب وحده، بل تريد أن تعبر بنا من خوف المصير إلى أمان القرب، ومن مشهد العيون الخارجة من الأحداث إلى مشهد الأرواح المستقرة في جنات ونهر، ومن سؤال الإنذار إلى جواب النجاة.

حين اقترب الموعد وأنشَقَّ القمر

﴿اَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾

لا تبدأ السورة بتمهيدٍ يهيئ النفس، ولا بمقدمة تمنح الغافل وقتاً إضافياً كي يرتب أذكاره؛ إنها تفتح أبوابها على الحقيقة الكبرى دفعةً واحدة: ﴿اَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾، فتضغط الأزمنة كلها في كلمتين، وتنتزع الإنسان من وهم المسافة الطويلة التي يضعها بينه وبين المصير، لأن المشكلة ليست أن الساعة بعيدة أو قريبة بمقاييس السنوات، وإنما أن الإنسان يعيش كما لو كانت لن تأتي، ويؤجل إصلاح قلبه كأن عمره عقدٌ أبدي لا ينفرط، ويخطط للدنيا كأنه المالك لعدد أنفاسه، ثم يفجؤه الموت فيكتشف أن الساعة التي كان يضعها في نهاية التاريخ قد بدأت ساعته الخاصة منها يوم انتهت أيامه.

جاء الفعل ﴿اَقْتَرَبَتِ﴾ بصيغة الماضي، لا لأن القيامة قد قامت، بل لأن وقوع ما وعد الله به بلغ من اليقين أن يُعَبَّرَ عنه كما يُعَبَّرُ عن الأمر المنجز، ولأن ما بقي من عمر الدنيا، وإن امتد في حساب البشر، قليلٌ إذا قيس بما مضى، وأقل إذا قيس بالأبد الذي يليها. إن الإنسان يقيس القرب بمقدار ما بينه وبين الحدث، أما القرآن فيعلمه أن يقيسه بمقدار يقين الحدث؛ فكل آتٍ محتمل قد يكون بعيداً، أما ما قضى الله بحجيته فهو قريب، لأن الزمن لا يستطيع تعطيل مشيئة الله، ولأن القرون في ملكه ليست جداراً يحجب أمره، بل صفحات يطويها متى شاء.

ثم يأتي المشهد الذي يحمل اسم السورة: ﴿وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾. ذلك الجرم الهادئ الذي تعودت العيون أن تراه رمزاً للاتساق والجمال ينشق بإذن الله، فتدخل الآية من الباب الذي ظن الإنسان أنه أكثر الأبواب ثباتاً: باب السماء. لقد طلب المكذبون آية، فأراهم الله من آيات قدرته ما لا تحتمله لغة المصادفة، وشهدوا الانشقاق الذي ثبتت به الأخبار الصحيحة، ولكن الآية لم تكن محتاجة إلى أن تثبت قدرة الله؛ فالكون كله قائم بها، وإنما

كانت تكشف طبيعة القلب الإنساني: هل يستسلم للثق إذا رآه، أم يعيد تأويل ما رآه كي يحتفظ بعناده؟

والقمر هنا ليس مجرد جرم انقسم ثم التأم، بل هو شاهد على هشاشة القوانين أمام خالقها؛ فالنظام الكوني الذي يدرسه الإنسان ويستخرج منه القواعد ليس إلهاً يحكم الله، وإنما هو أثر من آثار حكمة الله، يجري بأمره، ويتغير بأمره، وينشق بأمره. ليست المعجزة فوضى في الكون، بل إعلاناً عن أن الكون مملوك، وأن العادة ليست قيداً في يد الخالق، وأن الأسباب جنودٌ تعمل ما دامت المشيئة قد أقامت على عملها.

وبين ﴿اِقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ و﴿وَأَنشَقَّ الْقَمَرُ﴾ رابطة تهز القلب؛ فالانشقاق ليس مشهداً منفصلاً عن القيامة، بل نافذة صغيرة على اليوم الذي تنصدع فيه السماء، وتكور الشمس، وتنتثر الكواكب، وتزول عن العالم هيئته المألوفة. كأن انشقاق القمر جرسٌ كوني يقول: لا تغتروا بسكون السماء، فإن هذا البناء العظيم الذي يظلكم ليس أبدياً، ولا تحسبوا انتظام العالم دليلاً على استحالة تغيره، فإن الذي أنشأه على هذا النسق قادر على أن يطوي نسقه حين يبلغ الكتاب أجله.

وما أحوج الإنسان المعاصر إلى هذه الصدمة القرآنية؛ فقد ازداد علمه بحركة الأجرام، لكنه لم يزد بالضرورة خشوعاً لرب الأجرام، وصار يرى صور المجرات البعيدة ولا يرى قرب نهايته، ويحسب أعمار النجوم بمليارات السنين ثم يغفل عن سنواته المعدودة. إن السورة لا تدعوه إلى ترك العلم، بل إلى تحرير العلم من الغرور، وإلى أن يعبر من دقة الكون إلى حكمة خالقه، ومن اتساع السماء إلى ضآلة كبريائه، ومن النظر في القمر إلى الاستعداد لليوم الذي لا يبقى فيه القمر على صورته، ولا يبقى الإنسان على غفلته.

﴿وَأَن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾

هنا ينتقل القرآن من الآية في السماء إلى الاستجابة في النفس، وكأن المقصود الأكبر من انشقاق القمر لم يكن أن نعرف ماذا جرى للقمر فحسب، بل أن نعرف ماذا جرى في قلوب الذين رأوه؛ فقد انشق الجرم العظيم، ولم ينشق غلاف العناد، وتغير مشهد السماء،

ولم يتغير موقف المكذبين، لأن الإنسان إذا قرر الحرب من الحقيقة قبل أن يراها، فلن تقوده كثرة الأدلة إليها، بل سيجعل من كل دليل مادةً لعذر جديد.

تأمل قوله: ﴿وَأَنْ يَرَوْا آيَةً﴾، فهي صياغة تكشف عادةً متكررة لا موقفًا عابرًا؛ أي إنهم مهما يروا من الآيات، ومهما تتجدد أمامهم وجوه الدلالة، فإن آلة الإعراض تعمل في داخلهم قبل أن يعمل النظر، ولذلك لم يقل: لا يفهموا، أو لا يعلموا، بل قال: ﴿يُعْرِضُوا﴾؛ والإعراض حركة إرادية، فيها انصراف الوجه بعد ظهور ما يستحق الإقبال، وفيها قرار خفي بأن تظل النفس حيث هي مهما طرقت الحقيقة أبوابها.

إن القلب حين يخلص في طلب الحق قد يهتدي بإشارة، وحين يتشبث بهواه قد يخاضع الشمس في ضوئها؛ فالأدلة لا تعمل في فراغ نفسي، بل تدخل إلى قلب له رغبات ومصالح ومخاوف وكبرياء. وربما لم يكن الإنسان رافضًا للحق لأنه غامض، بل لأنه واضح إلى درجة تفرض عليه أن يتغير، والتغير مكلف، أما إعادة تسمية الدليل فأسهل. وهكذا قالوا: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾، فوضعوا بين أعينهم وبين الآية كلمة، وظنوا أنهم إذا غيروا اسم الحقيقة فقد أبطلوا حقيقتها.

و﴿مُسْتَمِرٌّ﴾ تحتمل في لسان العرب معنى القوي المحكم، وتحتمل معنى المارّ الزائل، وتحتمل ما يتتابع ويتصل بعضه ببعض؛ وكأن كلماتهم المضطربة تحمل وجوه اضطرابهم: تارة يصفون ما رأوه بأنه سحر قوي، وتارة يزعمون أنه عارض سيمضي، وتارة يمجعلون المعجزات كلها سلسلة من السحر المتتابع. وحين يعجز المعاند عن رد البرهان لا يلزمه أن يأتي ببرهان مثله، بل يكفيه في منطق الضجيج أن يلصق به تهمة، ثم يكررها حتى تبدو للسامعين جوابًا، مع أنها ليست إلا ستارًا لغويًا يخفي عجزه.

وهذه الآية لا تتحدث عن مكذبي مكة وحدهم، بل تكشف مرضًا يتكرر في كل عصر؛ فمما أكثر الذين لا يناقشون الفكرة بل يضعون عليها ملصقًا، ولا يقتربون من الحجّة بل يفرون إلى وصف صاحبها، ولا يسألون: أحقُّ هذا؟ بل يسألون: أي اسم نستعمله كي نغني أنفسنا من سماعه؟ وقد تغيرت الألفاظ وبقي الإعراض هو الإعراض؛ فالإنسان الحديث قد لا يقول عن الوحي: سحر، لكنه قد يصف كل ما يهدد شهرته بأنه تخلف، وكل ما يحد من

طغيانه بأنه قيد، وكل ما يذكره بالآخرة بأنه هروب من الحياة، فيعيد إنتاج الكلمة القديمة بقاموس جديد.

﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ﴾

في هذه الآية القصيرة تشریحٌ كامل لرحلة السقوط: تكذيبٌ في الظاهر، وهوى في الباطن، ثم مصير تستقر عنده الحقائق فلا يعود للتلبیس سلطان. لم يكن التكذيب نتيجة نقص الدليل، فالآية قد ظهرت، وإنما كان نتيجة اتباع الهوى، ولهذا جمع القرآن بين الفعلين: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾، ليعلمنا أن كثيراً من المعارك التي تبدو فكرية على السطح تخفي تحتها إرادة لا تريد أن تخضع، ومصلحة تخشى أن تتضرر، وشهوة تضيق بحدود التكليف.

والهوى سُمي هوى لأنه يهوي بصاحبه؛ فهو لا يقوده إلى علو وإن وعده بالتححرر، ولا يمنحه السيادة وإن أوهمه أنه سيد نفسه، بل ينقله من عبودية الحق الواحد إلى عبوديات متفرقة بعدد رغباته ومخاوفه. والعجيب أن الآية قالت: ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ بالجمع؛ لأن الحق واحد متناسق، أما الباطل فأهواء متنازعة، يريد أحدها اللذة الآن، ويريد الآخر السمعة غداً، ويطلب ثالث النجاة من اللوم، ويطلب رابع السيطرة على الآخرين، حتى يصبح القلب ميداناً لآلهة صغيرة لا تكف عن الخصام.

ثم تأتي الكلمة المهيبة: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ﴾. كل أمر سيبليغ قراره، وكل حقيقة ستصل إلى الموضع الذي يظهر فيه وجهها، وكل دعوى ستنتهي إلى امتحانها، وكل ظلم سيستقر عند عاقبته، وكل صدق سيستقر عند ثمرته. قد يبدو الباطل في لحظة من اللحظات منتشرًا حتى يظن أهله أنه صار قدراً، وقد يبدو الحق ضعيفاً حتى يظن الخائفون أنه يوشك أن يختفي، ولكن اللحظة ليست هي الحكم، والضحيج ليس هو النهاية، والتاريخ لا يتوقف عند الصورة التي يلتقطها المتعجلون؛ فكل أمر مستقر يكشف الله فيه ما كان مختبئاً تحت الأفعنة.

وفي هذه الجملة عزاء للمؤمن وإنذار للمكذب؛ عزاء للمؤمن لأن صدقه لن يظل مهجوراً في زحام التشويه، وإنذار للمكذب لأن الكذبة مهما طافت في الآفاق لا بد أن تصل إلى الحائط الأخير الذي لا تستطيع تجاوزه. وكل شيء الآن في حركة، أما في الآخرة فتستقر الأسماء على مسمياتها: يسمى الإيمان فوزاً، والتكذيب خسراً، والصبر نجاة، والظلم هلاكاً، وتختفي المسافات المصطنعة بين الفعل ونتيجته.

إن عصرنا مولع بالنتائج السريعة، حتى صار الناس يظنون أن من تصدر المشهد قد انتصر، وأن من امتلك المنصة امتلك الحقيقة، وأن ما لم تظهر ثمرته اليوم لا ثمة له، فتأتي الآية لتعيد تربية البصيرة: لا تحكم على الأمور وهي في الطريق، ولا تجعل اللقطة العاجلة خاتمة القصة، فإن لكل أمر مستقراً، وربما كانت الأشياء التي تحتفل الآن بصعودها تسير في الحقيقة نحو سقوطها، وربما كان المؤمن الذي يحسبه الناس مهزوماً يبني بصره موضعه في مقعد الصدق.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُرْدَجٌ﴾

لم يتركهم الله بلا خبر، ولم يجعل مصائر الأمم السابقة حبيسة الأزمنة المندثرة، بل جاءهم منها ما يكفي لزجر النفس عن الطريق نفسه. والأنباء ليست أخباراً للتسلية، ولا حكايات تُروى للملء الفراغ، وإنما هي حقائق كبرى تحمل في داخلها قوة الإيقاظ؛ ولذلك لم يقل: ما فيه علم فحسب، بل قال: ﴿مَا فِيهِ مُرْدَجٌ﴾، فالمراد ليس أن تعرف ماذا وقع لقوم نوح وعاد وثمود ولوط وآل فرعون، وإنما أن يولد علمك بما وقع حاجزاً في داخلك يمنعك من تكرار السبب الذي جر عليهم المصير.

و﴿مُرْدَجٌ﴾ كلمة فيها قوة صوتية تناسب معناها؛ كأن حروفها نفسها توقف النفس وهي مندفعة، وتردعها وهي تقترب من حافة الهاوية. فالقرآن لا يكتفي بأن يضع المعلومة في العقل، بل يريد أن يحولها إلى وازع في الضمير؛ لأن المعرفة التي لا تغير الاتجاه قد تزيد الحجة على صاحبها ولا تزيده هداية. وما أكثر الذين يعرفون أخبار الظالمين، ثم يمارسون ظلمهم بصورة أصغر، ويقرؤون عن سقوط المتكبرين، ثم يحتفظون بكبريائهم في بيوتهم

ومجالسهم، وييكون من قسوة فرعون، ثم يستعيرون شيئاً من منطقته حين يملكون سلطة على ضعيف.

إن في كل نبي قرآني مرآة، والخطر أن يتعامل القارئ معها بوصفها نافذة لا يرى فيها إلا الآخرين؛ فيرى في قوم نوح كفار عصره، وفي عاد خصومه، وفي فرعون طاغية بعيداً عنه، ولا يسأل عن نصيبه الشخصي من الإعراض والكبرياء ورفض النصيحة. أما التدبر الصادق فيجعل الإنسان يدخل القصة متبهماً لا قاضياً، ويسأل نفسه: أين أنا من هذا المرض؟ وما البذرة الصغيرة في قلبي التي لو سقيتها القوة والمال ربما صارت شجرة من الطغيان؟

لقد وصلت إلينا من الأنباء مواعظ تكفي لإنقاذ حضارة كاملة، ولكن المعلومة لا تنقذ وحدها؛ لا بد أن تتحول إلى ازدجار. والعالم المعاصر يملك من معرفة انهيار الحضارات والحروب والمجاعات والأنظمة المستبدة ما لم يملكه جيل سابق، ومع ذلك يعيد الأخطاء نفسها بأدوات أشد فتكاً، لأن ذاكرته تجمع الوقائع ولا تستخرج منها الهداية. يعرف الإنسان أن الطغيان يحرق البلاد، ثم يصنع للطاغية تمثالاً جديداً؛ ويعرف أن الجشع يدمر الأرض، ثم يسمي الجشع ثوباً؛ ويعرف أن الحرب تلتهم الأبرياء، ثم يخترع لها لغة باردة تخفي الدماء خلف الأرقام.

﴿حِكْمَةٌ بِاللِّغَةِ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾

ما جاءهم ليس خبراً عارياً، بل ﴿حِكْمَةٌ بِاللِّغَةِ﴾؛ حكمة بلغت الغاية في وضوحها وإحكامها، وبلغت الإنسان في موضع حاجته، وبلغت من النفوس ما لا تبلغه موعظة بشرية منفصلة عن علم الخالق. إنها حكمة تعرف من أين يدخل الوهم إلى القلب، وكيف يستدرج الهوى صاحبه، وكيف تبدأ الحضارات انحرافها بخاطرة ثم تحولها إلى ثقافة ثم تبني عليها مؤسساتها، ولذلك جاءت قصص السورة لا لتصف لحظة العقوبة وحدها، بل لتكشف المسار الذي سبقها: رسولٌ ينذر، وقومٌ يكذبون، وهوى يتضخم، ومهلة تمتد، ثم أمرٌ يستقر.

وبلوغ الحكمة لا يعني أن كل قلب ينتفع بها؛ فالشمس بالغة الضوء، لكن من أغلق عينيه لا يُجبره سطوعها على الرؤية. ولهذا جاء التعقيب المؤلم: ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾، أي ما الذي يمكن أن تصنعه النذر في قوم اتخذوا قرار الإعراض؟ ليست المشكلة في قصور الإنذار، بل في موت القابلية للإنذار؛ فالرسالة قد تكون في أعلى درجات البيان، والحجة في غاية الوضوح، ولكن الإنسان يستطيع أن يبني داخل نفسه جداراً يمنع النور من التحول إلى هداية.

وفي قوله: ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ سؤال يحمل معنى النفي والتوبيخ؛ فإذا لم توقظهم الآية، ولم يردعهم النبأ، ولم تنفعهم الحكمة، فماذا ينتظرون؟ إنهم يطالبون بدليل جديد، لا لأن الدليل السابق ناقص، بل لأن التأجيل نفسه صار حيلتهم الأخيرة؛ وكلما جاءهم برهان قالوا: نريد غيره، ولو جاءهم غيره لطلبوا ثالثاً، حتى ينتهي زمن الطلب ويحيى زمن الحساب.

وهذه من أخطر حيل النفس المعاصرة؛ أن توهم صاحبها بأنه لا يرفض الحق، بل يحتاج فقط إلى مزيد من التفكير، ثم تجعل التفكير انتظاراً بلا نهاية، وتجعله يطلب يقيناً لا يطلب مثله في شيء من شؤون حياته. فهو يتخذ قرارات المال والعمل والزواج والسفر بقرائن محدودة، فإذا جاء أمر الإيمان طلب برهاناً لا يترك له أي قدرة على الاختيار، مع أن الله أقام من الآيات في الوحي والكون والنفس والتاريخ ما يجعل الإعراض نفسه محتاجاً إلى تفسير.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعُ إِلَى شَيْءٍ نَّكَرٍ﴾

بعد أن بلغ الإنذار غايته، ولم يبق في البيان نقص، جاء الأمر للنبي ﷺ: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾. وليس التولي هنا عجزاً عن دعوتهم، ولا نفاذاً لرحمة الرسول، بل إعلان أن للدعوة أجلاً، وأن الباب الذي يُفتح طويلاً قد يأتي وقت يُترك فيه المعرضون لما اختاروه، وأن النبي ليس مكلفاً بأن يتزعج الإيمان انتزاعاً من قلوب آثرت العمى. وفي هذا تسلية للداعية؛ فالهداية ليست صنعة بشرية، والقلوب ليست أرضاً يملك المصلح أن يزرع فيها ما شاء، وإنما عليه البلاغ والصبر والرحمة، ثم يترك سرائر الخلق لمن خلقها.

لكن التولي لا يترك المشهد فارغاً؛ فما إن يتولى الرسول عنهم حتى ينتقل السياق إلى اليوم الذي يتولى فيه الأمان كله عنهم: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ﴾. هناك دعوة كانوا يستطيعون في الدنيا أن يعرضوا عنها، ودعوة في الآخرة لا يستطيعون لها رداً. ناداهم الرسول إلى النجاة فاختاروا ألا يسمعوها، ثم يناديهم الداعي إلى الحشر فيخرجون؛ كأن السورة تقابل بين نداء الرحمة الذي يمكن أن يعصى في زمن الاختبار، ونداء القدرة الذي لا يمكن أن يعصى في زمن الجزاء.

ووصف الحشر بأنه ﴿شَيْءٌ نُّكْرٍ﴾؛ أي أمر عظيم منكر لم تألفه النفوس، ولا تعرف له في تجاربها نظيراً، ولا تستطيع أن تحيط به تخيلتها. فالإنسان يقيس مخاوفه بما عرفه: مرضٍ أو فقدٍ أو حربٍ أو انهيار، أما القيامة فشيء خارج عن أرشيف الرهبة الإنسانية؛ يوم تتغير فيه بنية العالم، ويخرج الموتى من كل أرض، وتجتمع البشرية منذ أول إنسان إلى آخر إنسان، ويقوم كل فرد عازياً من القوة التي كان يلوذ بها.

وتكثير ﴿شَيْءٍ﴾ يزيد المشهد رهبة؛ فكأن اللغة لا تسميه في البداية، بل تتركه ككلمة من الهول لا يحيط بها اسم. وما أضعف الإنسان الذي يتكبر اليوم عن إجابة نداء الله، مع أنه سيلبي غداً نداءً لا يختار تلييته؛ وما أعجب من يهرب من سجدة يؤديها مختاراً في الدنيا، ليقف ذليلاً في مشهد لا يملك فيه لنفسه صرفاً ولا عدلاً.

﴿خُشَعَا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾

تبدأ القيامة من العيون: ﴿خُشَعَا أَبْصَارُهُمْ﴾. تلك العيون التي كانت ترتفع استكباراً تنفض الآن خوفاً، والتي كانت تنظر إلى الضعفاء باحتقار تفقد قدرتها على الثبات، والتي أعرضت عن الآيات صارت محاصرة بالمشهد الذي لا معرض عنه. وانخسوع هنا ليس خشوع الإيمان الذي يورث السكينة، بل خشوع القهر الذي يورث المهانة؛ فالذين لم تخشع قلوبهم للحق في زمن الاختيار تخشع أبصارهم للهول في زمن الاضطراب.

ثم يخرجون ﴿مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾؛ من القبور التي طال صمتها حتى حسب الأحياء أنها خاتمة أصحابها. ولفظ الأجداث يفتح أمام الخيلة أرضاً تشقق في كل ناحية، وتدفع ما

استودعته من الأجساد، فلا قبر يحتفظ بساكنه، ولا بحر يضيع من مات فيه، ولا تراب يعجز الخالق عن جمع ما تفرق فيه؛ فالأرض التي ظن الإنسان أنها ابتلعتها ليست إلا وعاء حفظ ما أمرها الله أن تحفظه إلى ساعة النداء.

ويخرجون ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾؛ تشبيه يجمع الكثرة والاضطراب والانتشار وسرعة الحركة. وإذا رأى الإنسان أسراب الجراد وهي تملأ الفضاء حتى يكاد الفرد يضيع في الجمع، أدرك طرفاً من صورة البشر وهم يتدافعون من الأحداث، لا يحمل أحد منهم قصره ولا منصبه ولا حدود دولته، ولا يمتاز صاحب تاج من صاحب كوخ في هيئة الخروج؛ فالجميع أفراد في سرب البشرية الكبير، تسوقهم دعوة واحدة إلى محكمة واحدة.

لكن التشبيه لا يلغي فردية الحساب؛ فهم كالجراد في كثرتهم وانتشارهم، ثم يقف كل واحد وحده أمام عمله، لا تحجيه الكثرة التي ذاب فيها، ولا الجماعة التي كان يتخذها عذراً، ولا الشعار الذي أخفى داخله مسؤوليته. وهنا تنكسر إحدى أكبر أوهام الإنسان: أن انتشار الخطأ يجعله صواباً، وأن وجود الملايين في الطريق نفسه يضمن سلامة النهاية. كلا؛ فقد يخرج الملايين جميعاً من الأحداث، ثم يكتشف كل واحد أن الكثرة لم تكن حجة، وأن الله أعطاه قلباً وعقلاً ليصير بهما، لا ليدوب في حركة السرب.

﴿مُطْعِنِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمَ عَسِيرٍ﴾

﴿مُطْعِنِينَ﴾: مسرعين ممدّي أعناقهم، مقبلين إلى الصوت في ذلّ وقلق، لا يملكون أن يتأخروا ولا أن يغيروا وجهتهم. لقد كانوا في الدنيا إذا دُعوا إلى الله تباطؤوا، وإذا دعيتهم الشهوة أسرعوا، وإذا سمعوا نداء الصلاة وجدوا في أجسادهم ثقلاً، وإذا سمعوا نداء الربح أو الشهرة وجدوا خفةً ونشاطاً؛ أما اليوم فقد انتهت حرية توزيع الإسراع، وصاروا مسرعين إلى الداعي الذي أنكروه، يقودهم أمر الله إلى الموعد الذي حاولوا إخراجه من حساباتهم.

وتجارب هذه الآية مع ما قبلها في حركة تصويرية مهيبة: أبصار خاشعة، وأجساد تخرج من الأحداث، وجموع تنتشر كالجراد، وأعناق تمتد نحو الداعي، ثم تنطلق الكلمة أخيراً من أفواه الكافرين: ﴿هَذَا يَوْمَ عَسِيرٍ﴾. لم يعودوا يقولون: سحر مستمر، ولم يطلبوا آية أخرى، ولم

يناقشوا إمكان البعث؛ لقد سقط قاموس المكابرة كله، وحضرت الحقيقة باسمها الذي كانوا يهرون منه.

قالوا: ﴿هَذَا﴾، باسم الإشارة إلى الحاضر المشهود؛ فالقيامة التي وضعوها في خانة المستحيل صارت أقرب الأشياء إليهم، والوعد الذي عاملوه بوصفه حكاية صار محيطاً بأجسادهم، والآخرة التي طردوها من وعيهم صارت هي الوعي كله. وقالوا: ﴿يَوْمَ عَسِرٌ﴾، فاعترفوا بعسره حين لم يعد الاعتراف ينجي، مع أن الله أرسل إليهم من قبل من يصف لهم اليوم ويخبرهم بطريق السلامة منه.

إن المشكلة لم تكن يوماً أن القيامة عسيرة؛ فقد دهم الله على ما يجعلها يوم أمنٍ وكرامة، وإنما المشكلة أنهم أرادوا النجاة من عسرها بإنكارها، كما يغمض المريض عينيه عن الداء ظاناً أن عدم الاعتراف به نوع من العلاج. ولكن الحقائق لا تزول إذا طردناها من اللغة، والمواعيد لا تتعطل لأننا لم نستعد لها، والموت لا يؤجل خطوته لأن الإنسان مشغول ببناء خططه.

وهنا تقف السورة أمام إنسان هذا العصر الذي يسرع إلى كل داعٍ إلا داعي الله؛ تهتف به الإعلانات فيستجيب، وتناديه الموضات فيتبع، وتستفزه الشاشات فيمنحها الساعات، وتستدعيه المنافسة فيستنزف روحه، فإذا دعاه القرآن إلى لحظة صدق قال: ليس الآن. لكن الآية تسأله قبل أن يُسأل: إلى أي داعٍ تُطع اليوم؟ ومن الذي يحدد وجهة سرعتك؟ وهل ما تركض نحوه يستحق أن تلقى الله وقد استنفدت فيه عمرك؟

إن القيامة لا تباغى من صدق بها، وإن فاجأه وقتها؛ لأنه عاش تحت ضوءها، وجعلها ميزاناً لاختياراته، ولم يسمح لضجيج العاجلة أن يحوها من قلبه. أما من عاش يردد بلسان حاله أن الوقت ما يزال طويلاً، فسوف يرى فجأة أن الزمن كله انطوى، وأن القمر الذي كان يراه مكتملاً في السماء قد انشق، وأن الأرض التي مشى فوقها مختلاً قد أخرجته من قبره، وأن الداعي الذي أهمل نداءه الرحيم في الدنيا يدعوه الآن إلى يوم يقول فيه: ﴿هَذَا يَوْمَ عَسِرٍ﴾.

نوح: حين وقف عبدٌ واحدٌ في وجه عالمٍ مكذبٍ

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾

ما إن ينتهي مشهد الخارجين من الأحداث، وما إن نسمع الكافرين يعترفون قائلين: ﴿هَذَا يَوْمُ عَسَرٍ﴾، حتى تعود بنا السورة إلى أول المصارع الكبرى في تاريخ التكذيب، وكأنها تقول لمكذبي مكة ولكل مكذب يأتي بعدهم: إن هذا الطريق الذي تمشون فيه ليس جديداً، وإن الكلمات التي تقولونها ليست وليدة عقول متفردة كما تتوهمون، بل هي صدى قديم لكلمات قالتها أمم سبقتكم، ثم مضت وبقيت عاقبتها شاهدة على أن تكرار الباطل لا يمنحه نجاة جديدة.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾؛ بدأ السياق بالفعل لأن التكذيب هو العنوان الذي اختصر تاريخهم الطويل، مع أن نوحاً عليه السلام لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، يدعو ويذكر، ويجهر ويسر، ويخاطب العقل والوجدان، ويفتح أمامهم أبواب الرجاء، ويحذرهم من عاقبة الإصرار، حتى لم يبق أسلوب من أساليب الرحمة إلا سلكه، ولا وقت من أوقات الدعوة إلا ملأه بالنصيحة. ولكن القرآن يطوي تلك القرون في كلمة: ﴿كَذَّبَتْ﴾؛ لأن الأعمار لا تُقاس في ميزان المصير بعدد سنواتها، بل بالموقف الذي استقرت عليه، ولأن أمة قد تعيش قروناً وتبني وتكاثر، ثم يُختصر تاريخها كله في أنها وقفت أمام الحق وقالت: لا.

ثم أعاد الفعل فقال: ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾، ولم يقل فحسب: فكذبوه؛ لأن الإضافة هنا تشريف لنوح وتهديد لمكذبيه. إنه عبد الله، والذي تمتد إليه أيدي الإيذاء ليس منقطعاً في صحراء الوجود، بل مضاف إلى رب العالمين، وتلك الإضافة وحدها تكفي لتغيير ميزان المعركة كله؛ فقد يبدو نوح رجلاً واحداً في مواجهة قوم كاملين، ولكن من كان عبداً لله

لم يكن وحده قط، ومن خاصم عبد الله بسبب عبوديته فقد أدخل نفسه في خصومة لا يطيق عاقبتها.

وتلك هي ذروة الكرامة التي يرفع القرآن إليها الإنسان: العبودية. لم يمدح نوحاً أولاً بكثرة علمه، ولا بطول صبره، ولا بعظمة معجزته، مع أن ذلك كله ثابت له، بل سماه ﴿عَبْدَنَا﴾؛ لأن العبودية الصادقة هي الجذر الذي تنبت منه كل تلك الفضائل، وهي تحرر الإنسان من أن يكون عبداً لرضا الجماهير، أو أسيراً لخوف السلطة، أو تابعاً للعرف حين يخرف العرف. لقد استطاع نوح أن يقف قروناً أمام السخرية؛ لأنه لم يكن يسأل كل صباح: ماذا يقول الناس عني؟ بل كان يسأل في سريره: ماذا يريد الله مني؟

أما قومه، فلما عجزوا عن إسقاط الرسالة بالحجة حاولوا إسقاط الرسول بالتهمة: ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ﴾. وهذه من أقدم حيل الباطل: أن يحول النزاع من صدق الفكرة إلى سلامة صاحبها، ومن البرهان إلى التشهير، ومن السؤال: ماذا يقول؟ إلى السؤال: ماذا نسميه؟ فإن لم يستطيعوا رد دعوته أخرجه من دائرة العقل كيلا يضطروا إلى الاستماع إليه، مع أن الجنون الحقيقي هو أن يرى الإنسان سفينة النجاة تُبنى أمامه ثم يسخر منها، وأن يسمع إنذار السماء طويلاً ثم يطمئن إلى صمت الغيم، وأن يستبدل نداء الرحمة بعنادٍ ينتهي به تحت الماء. ولم تقف المسألة عند الكلمة، بل قالت الآية: ﴿وَأَرْذُرْجَ﴾؛ أي زجر نوح وأوذي وُهر وهدد، حتى أصبحت الدعوة التي جاء بها لينقذهم ذنباً يعاقبونه عليه. وما أشد المفارقة: رجل يحمل إليهم النجاة، وهم يزجرونه عن إنقاذهم؛ يحذرهم من الطوفان، وهم يريدون إسكات صوته كي يظلوا مطمئنين في طريق الغرق. وهذا يكشف أن الإنسان قد يعادي من ينصحه لا لأن النصيحة تؤذي، بل لأنها تؤذي الصورة الكاذبة التي صنعها عن نفسه، وقد يكره المرأة لأنها تكشف الجرح بدل أن يكره الجرح نفسه.

وفي المبنى للمجهول ﴿وَأَرْذُرْجَ﴾ اتساعٌ يوحي بأن الزجر لم يكن موقف فردٍ واحد، بل صار مناخاً اجتماعياً يحيط بالنبي؛ أقوالاً وتهديداً وسخرية وضغطاً متراكماً. وحين تتحول مقاومة الحق إلى ثقافة عامة، يشعر كل فرد أن له نصيباً في حراسة الباطل، وربما زجر الناس المصلح لا لأنهم فكروا في دعوته ورفضوها، بل لأن الجماعة علمتهم أن السخرية منه علامة الانتماء إليها.

وكم يتكرر هذا المشهد في العالم المعاصر حين تُواجه الكلمة الصادقة لا بالنقاش، بل بالتشخيص النفسي والتشويه الاجتماعي والعزل الإعلامي؛ فيُقال عن صاحب المبدأ إنه معقد، وعن صاحب العفة إنه عاجز، وعن الثابت إنه متطرف، وعن من يذكّر بحدود الله إنه يكره الحياة. إنها كلمات تبدل، لكن جوهر ﴿مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ يبقى حاضراً: سلبُ الناصح أهليته المعنوية، ثم منعه من إيصال النصيح، حتى يخلو الفضاء للصوت الذي يطمئن الناس وهم يقتربون من الهاوية.

﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرُ﴾

بعد قرون من البلاغ، وبعد أبواب طُرقت حتى لم يبق وراءها قلب يرجى منه إقبال، وبعد صبرٍ لا تكاد الخيلة البشرية تحيط بطوله، رفع نوح عليه السلام قضيته إلى السماء في كلمات قليلة: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرُ﴾. ليست هذه صرخة رجل ضاق صدره من أول أذى، ولا دعاء نفس انتقمت لكرامتها الشخصية، بل خلاصة عمر استنفدت فيه الوسائل، واكتمل فيه البلاغ، وانكشفت فيه حقيقة القوم حتى أوحى الله إليه أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن.

قال: ﴿رَبِّهِ﴾، فحين أغلقت الأرض أبوابها بقي باب الرب مفتوحاً، وحين ازدجره القوم وجد في مناجاة الله فسحة لا يبلغها زجرهم، وحين بدا في ميزان العدد مغلوباً عاد إلى الميزان الذي لا يخطئ: ميزان الربوبية. إن المؤمن لا يلجأ إلى الله لأن الله خيار أخير بعد فشل الخيارات، بل لأنه الحقيقة الأولى التي كانت تقوم بها كل محاولة، غير أن لحظة انقطاع الأسباب تكشف للقلب ما كان ينبغي أن يعرفه دائماً: أن القوة لم تكن في كثرة الأنصار، ولا في طول المدة، ولا في حسن الوسائل وحدها، وإنما كانت فيمن يملك القلوب والأيام والسماء والأرض.

وفي قوله: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ﴾ صدق العبودية؛ فلم يتظاهر نوح بالقوة أمام ربه، ولم يضع على ألّه مساحيق البطولة؛ بل سَمَّى ضعفه كما يشعر به. والله لا يطلب من عبده أن ينكر انكساره، وإنما أن يعرف أين يضعه؛ فن وضع انكساره على أبواب الخلق عاد أكثر

انكساراً، ومن وضعه بين يدي الله صار انكساره أول أبواب القوة. الاعتراف بالغلبة أمام الله ليس هزيمة، بل تحرير للنفس من ادعاء القدرة المطلقة، وإعلان أن العبد قد وصل إلى آخر ما يستطيع، وأنه يرد الأمر إلى من لا تنتهي قدرته حيث تنتهي قدرة البشر.

ثم قال: ﴿فَانتَصِرْ﴾، ولم يقل: فانتصر لي، وكأن القضية قد خرجت من حدود ذاته إلى مقام الرسالة؛ انتصر لدينك الذي كُذِبَ، ولحقك الذي استهزئ به، ولآياتك التي أعرضوا عنها. إن الداعية الصادق لا يجعل نفسه مركز الصراع، فلا يغضب لأن الناس لم يصفقوا له، ولا يطلب انتقاماً لجرح كبريائه، وإنما يحزن لأن الحق جُحِبَ، ولأن الخلق يسرون إلى الهلاك، فإذا دعا بالنصر كان همه أن يظهر ميزان الله، لا أن يتضخم اسمه فوق أنقاض خصومه.

وما أقصر الدعاء، وما أوسع جوابه؛ كلمات معدودة تصعد من الأرض، فتتحرك لها السماء بالماء، وتنفجر لها الأرض بالعيون، ويُنْبئ لها الفلك، ويُحْمِل المؤمنون، ويطوى بها عصر كامل. ليست العبرة بطول العبارة، بل بصدق القلب الذي يقف خلفها، فرب دعاء قليل الحروف حمل من الافتقار ما فتح أبواباً عجزت عنها الخطب الطويلة.

وفي هذه الآية ملجأ لكل من غلبته نفسه، أو أحاطت به فتنة، أو استبد به ظلم، أو وجد الحق الذي يحمله محاصراً بضجيج الباطل؛ ليس مطلوباً منه أن يتوهم أنه لا يُغلب، بل أن يعرف أن غلبته ليست الكلمة الأخيرة ما دام له رب يدعو. ولكن الآية تعلّمه كذلك ألا يتعجل دعاء نوح قبل أن يؤدي صبر نوح، وألا يطلب نزول الجواب وهو لم يذل ما يستطيع من البيان والرفق والثبات؛ فقد جاءت ﴿فَانتَصِرْ﴾ بعد عمر من الدعوة، لا بعد أول باب أُغلق.

﴿فَقَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّهِمَرٍ﴾

جاءت الفاء سريعة كسرعة الإجابة: ﴿فَدَعَا﴾، ﴿فَقَتَحْنَا﴾؛ وما بين الدعاء والفتح في ظاهر اللفظ لحظة، وإن سبقتها في حياة نوح قرون من الصبر. وحين يحين أمر الله تنضغط

المسافات، وتسقط الحواجز، ويتحول الضعف البشري الموصول بالقدرة الإلهية إلى قوة لا تقف أمامها أمة مكذبة.

لم يقل: فأنزّلنا المطر، بل قال: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ﴾، فالمشهد ليس غيمًا يطر على الصورة المألوفة، بل سماء كأنها بناء ذو أبواب مغلقة، ثم جاء الأمر ففتحت أبوابها جميعاً، وانحدر الماء منها بلا انقطاع. والتعبير بالأبواب يوحي بالكثرة والاتساع والتنظيم؛ فهذا ليس انفلتاً أعمى في الطبيعة، بل تنفيذ لأمر مقدر، فتح معلوم الوقت والمقدار والغاية، وكل قطرة فيه جندي يعرف أين يقع وماذا يصنع.

ووصف الماء بأنه ﴿مُنْهَمِرٍ﴾؛ متدفق بشدة وكثرة واستمرار، لا يمنح القوم فرصة يستعيدون فيها وهم السيطرة. كانوا يرون السماء فوقهم سقفاً للأمان، فإذا بها تفتح عليهم أبواب العقوبة، وكانوا يستقبلون المطر بوصفه سر الحياة، فإذا بالماء نفسه يصير جنداً للموت. وهنا يظهر سلطان الله على وظائف الأشياء؛ فليس في الكون شيء رحمة بذاته أو عذاباً بذاته، وإنما يكون الشيء رحمة أو عذاباً بحسب الأمر الذي يحمله من ربه. الماء الذي تحيا به الأرض أغرق أمة، والنار التي تحرق صارت على إبراهيم برداً وسلاماً، والبحر الذي حمل موسى ومن معه ابتلع فرعون وجنده؛ لأن الأسباب لا تستقل بآثارها، وإنما تجري تحت مشيئة الله وحكمته.

والسماء التي فتحت أبوابها بالماء كانت من قبل تفتح أبوابها بالوحي، لكنهم أغلقوا قلوبهم عن ماء الهداية، فجاءهم ماء العقوبة. يا لها من مقابلة مخيفة: أرسل الله إليهم نوحاً ليحيي أرواحهم، فرفضوا الحياة التي جاءت في الكلمات، حتى أحاط بهم الماء الذي أوقف حياة الأجساد. من لم يتلق المدد من السماء رحمةً قد يلقاه حجة أو عقوبة، ومن أعرض عن الفتح الذي يدخل النور إلى قلبه قد يشهد فتحاً آخر لا يملك دفعه.

وفي عالمنا الذي يفاخر بقدرته على توقع الظواهر وضبط الموارد وبناء السدود، تأتي الآية لا لتدعوه إلى ترك العلم أو إهمال الأسباب، بل لتمنعه من تأليه قدرته؛ فالإنسان يستطيع أن يدرس دورة الماء، لكنه لا يملك أن يستقل بقطرة خارج سلطان الله، ولا يستطيع أن يبني الحواجز، لكنه لا يستطيع أن يضمن أن تظل قوانين العالم خادمةً لأغراضه. وما أضعف الحضارة حين تنسى أن السقف الذي يحميها يمكن أن يصير باباً ينهر منه ما لا تحتمل.

﴿وَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾

لم يأت الطوفان من جهة واحدة؛ فالسما ففتح أبوابها، والأرض نفسها تفجرت عيوناً، وكأن الكون أحاط بالمكذنين من فوقهم ومن تحت أقدامهم، فلم يبق لهم موضع يقفون عليه خارج الأمر الإلهي. كانوا يظنون الأرض حصنهم الثابت في مقابل المطر النازل، فإذا بالأرض التي احتموا بها تنضم إلى السماء، ويصبح ما تحتهم شريكاً لما فوقهم في تنفيذ القضاء.

والتعبير: ﴿وَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ أبلغ من أن يقال: وجفنا عيون الأرض؛ فكأن الأرض كلها تحولت إلى عيون فوارة، وذابت طبيعتها اليابسة في سيول متدفقة، فلم تعد العيون مواضع محدودة فيها، بل أصبحت هي في الصورة القرآنية ككلمة من المنابع. وهذا من قوة النظم الذي لا ينقل معلومة فحسب، بل يبني مشهداً يحيط بالخيال؛ ترى الأرض تشقق في كل ناحية، وترى الماء يقذف من جوفها، ثم تنظر إلى السماء فتجد الماء يهبط منها، حتى يصبح الإنسان بين مائين لا يستطيع أن يهرب من أحدهما إلا إلى الآخر.

ثم قال: ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾، فجاء بالماء بلفظ المفرد مع أن المقصود ماء السماء وماء الأرض؛ لأن المائين حين التقيا صارا جيشاً واحداً، واتحد مصدرهما في الحقيقة وإن اختلفت جهتهما، فكلاهما مأمور، وكلاهما ينفذ قضاء الله. وما يراه الإنسان ظواهر متفرقة قد يكون في تدبير الله أجزاء لخطوة واحدة؛ غيمة في السماء، وعين في الأرض، وسفينة تُبنى على مرأى الساعرين، ودعاء خرج من قلب نبي، وكلها تلتقي عند اللحظة المقدرة لتصنع الفصل الأخير.

﴿عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾، لم يكن الطوفان انفجاراً عشوائياً، ولا رد فعل غير محسوب، تعالى الله عن ذلك، بل أمراً مقدراً بعلم وحكمة وعدل: مقدراً في وقته، ومقداره، ومداه، ومن ينجو فيه، ومن تنتهي به المدة. وصيغة ﴿قَدْ قُدِرَ﴾ تشعر القلب بأن ما يراه الناس مفاجأة كان مكتوباً في علم الله، وأن الحدث قبل أن يظهر في العالم كان واقعاً في التقدير الذي لا يضل ولا ينسى.

وهذه الحقيقة تمنح المؤمن طمأنينة في قلب العاصفة؛ فالأحداث قد تنهمر عليه من فوقه، وتنفجر تحت قدميه، حتى يشعر أن الجهات كلها قد أغلقت، لكنه يعلم أن الماء لم يلتق عبثاً، وأن شيئاً لا يخرج عن القدر، وأن الأمر الذي يراه فوضى قد يكون في علم الله طريقاً محكماً إلى نجاة لا يراها بعد. والقدر لا يعفي الإنسان من العمل؛ فنوح دعا وبني وحمل وسار، لكنه يمنعه من الظن أن النتيجة أسيرة يده، ويحرره من الانهيار حين تأتي النتائج على غير ما توقع.

أما الإنسان المعاصر، فكثيراً ما يرى الحوادث منفصلة لأنه لا يرى إلا القطعة القريبة من الزمن؛ أزمة اقتصادية هنا، وانهياراً أخلاقياً هناك، واضطراباً في الأسرة، وقسوة في القلب، ثم لا يدرك أن هذه المياه المتفرقة قد تلتقي يوماً على أمر قد قُدر، وأن المجتمعات لا تفاجأ بالسقوط في لحظة واحدة، بل تتجمع أسبابه قطرة قطرة حتى يأتي يوم الالتقاء. ولذلك لا يكفي أن يراقب الإنسان الماء حين يرتفع، بل عليه أن ينتبه إلى الشقوق الصغيرة التي بدأ يتفجر منها.

﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ﴾

وسط الماء الذي ابتلع معالم الأرض تظهر السفينة؛ لا يسميها القرآن هنا باسمها، بل يصفها: ﴿ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ﴾، كأنه يعيدها إلى عناصرها البسيطة ليكشف المفارقة بين ضخامة الطوفان وبساطة أداة النجاة. ألواح من خشب، ودُسْرُ تشد بعضها إلى بعض، تقف أمام أمواج غمرت العالم؛ وليس في حساب المادة المجردة ما يجعل هذا البناء الصغير أقدر على البقاء من الجبال والأبنية، ولكن السفينة لم تتج بقوة خشبها وحده، بل لأنها حملت أمر الله، ولأن العناية أحاطت بها.

وقال: ﴿وَحَمَلْنَاهُ﴾، فنسب الحمل إليه سبحانه، مع أن نوحاً كان في السفينة والسفينة على الماء؛ لأن الأسباب الظاهرة لا تحجب الفاعل الحقيقي، ولأن الفلك لم تكن هي التي حملت نوحاً استقلالاً، بل الله حمله عليها وحملها به، وأجرى الماء تحتها، وحفظ ألواحها من التصدع ودسرها من الانفصال. وما أجمل أن يعرف المؤمن، وهو يتخذ أسبابه، أن السبب

لا يحمله إلا إذا حمّله الله به؛ فالدواء لا يشفي وحده، والبيت لا يحيي وحده، والمال لا يكفي وحده، والخطّة لا تنجح وحدها، وكل لوح في سفينة الحياة محتاج إلى حفظ الله.

وفي ذكر الألواح والدرّس تكريم للعمل البشريّ المأمور به؛ فقد كان قادراً سبحانه أن ينجي نوحاً بغير سفينة، أو أن يشقّ له طريقاً في الماء، لكنه أمره أن يصنع الفلك، وأن يجمع الألواح، وأن يثبتها بالدرّس، ليبقى قانون النجاة جامعاً بين التوكل والعمل. الدعاء الذي قال فيه نوح: ﴿فَانتَصِرْ﴾ لم يعفه من البناء، والثقة بوعده الله لم تجعله ينتظر معجزة بلا حركة؛ فقد كان يبني سفينة في أرض لا تبدو فيها أمارات الطوفان، ويضرب بالمطرقة بينما يضربه قومه بالسحرة، ويثبت الدرّس في الخشب وهو يثبت اليقين في قلبه.

إن المؤمن قد يكلف أحياناً أن يبني سفينته قبل أن يرى الماء، وأن يتخذ السبب الذي يبدو في أعين الناس غريباً، لا لأنّ العقل ألغى، بل لأنّ الوحي يرى من امتداد الطريق ما لا تراه اللحظة. وكم من فكرة صادقة سخر منها الناس وهي تُبنى، ثم تمّنوا عند ارتفاع الطوفان لو كان لهم فيها موضع؛ وكم من تربية إيمانية بدت في زمن الرخاء تشدداً زائداً، ثم صارت عند الفتنة سفينة تحفظ القلب من الغرق.

﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾

ليست السفينة متروكة للأمواج، بل ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾؛ أي برعايتنا وحفظنا وكلاءتنا، على ما يليق بجلال الله من غير تشبيه ولا تكيف، فليس كمثل شيء، وهو السميع البصير. إنها عبارة تفيض أماناً في قلب أكثر المشاهد رعباً؛ ماء من فوق وماء من تحت، وأمواج تتعالى، والأرض تختفي، لكن السفينة تجري في عناية لا يغيب عنها لوح، ولا يخفي عليها مسار، ولا تعجز عن رد موجة.

ولم يقل: تقف بأعيننا، بل ﴿تَجْرِي﴾؛ فالرعاية الإلهية لا تعني دائماً أن تتوقف العاصفة، بل قد تعني أن تمضي السفينة في قلبها آمنة، ولا تعني أن تختفي الأمواج من حول المؤمن، بل أن تحفظه العناية وهو يعبر بينها. وقد يخطئ الإنسان حين يجعل السكينة

مشروطة بزوال كل اضطراب، مع أن أعمق السكينة أن يعرف أن السفينة تجري بعين الله وإن ظل الأفق مغطى بالماء.

﴿جَزَاءٌ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾؛ جزاء لنوح الذي كفر به قومه وحذوا رسالته، أو جزاء للعبد الذي غطيت نعمته ومكانته بالكذب، فكان إنجاؤه وإهلاك مكذبيه إظهاراً لكرامته عند ربه. وفي التعبير بالمبني للمجهول ﴿كُفِرَ﴾ إيحاء بما أحاط بنوح من جحود؛ كُفرت رسالته، وكُفر حقه، وكُفرت نعمة بعثه فيهم، فكأن المجتمع كله اشترك في تغطية النور الذي جاء به.

والجزاء هنا ليس انتقاماً بشرياً لنفس مجروحة، وإنما انتصار لميزان الحق بعد أن بلغ الظلم مداه، وإعلان أن الله لا يترك أوليائه وإن تركهم زمناً للاختبار. قد تجري سفينة المؤمن بطيئةً أمام أعين المستهزئين، وقد لا يرى أثر الحفظ وهو يجمع الألواح، لكن العناية التي رعته في زمن البناء سترعاه في زمن الموج؛ ومن كان بعين الله فلا يضره أن يكون خارج أعين الجماهير، ومن عرفه الله عبداً صادقاً لا تنقصه الأسماء التي يلصقها به المكذبون.

﴿وَلَقَدْ تَرَكَّاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مَدْكِرٍ﴾

انتهى الطوفان، وسكنت المياه، ومضى نوح وقومه، لكن الله لم يترك القصة تمضي مع أصحابها، بل قال: ﴿وَلَقَدْ تَرَكَّاهَا آيَةً﴾. ترك السفينة أو ترك قصتها آية باقية في ذاكرة البشرية، تحمل من جيل إلى جيل أن النجاة ليست للأكثر عدداً، بل للأصدق إيماناً، وأن السخرية لا تغير مصير السفينة، وأن الماء قد يتأخر طويلاً لكنه يأتي في الوقت المقدّر، وأن عبداً واحداً موصولاً بالله أثقل في ميزان الحقيقة من أمة قطعت صلتها به.

إن بقاء الآية رحمة؛ فالله لم يجعل كل جيل محتاجاً إلى طوفان جديد كي يتعلم، بل أبقى له خبر الطوفان الأول، ومنحه القدرة على النجاة بالعبرة بدل أن يتعلم بالغرق. وهذه وظيفة التاريخ في الرؤية القرآنية: أن يدفع اللاحقون أقل الأثمان لأن السابقين كشفوا لهم عواقب الطرق، ولكن البشر كثيراً ما يصرون على أن يجربوا النار بأيديهم، كأن آلام الماضين لا تكفيهم، وكأن كل جيل يظن أن قوانين السقوط ستستثنيه.

ثم يأتي السؤال الذي يهز السورة كلها: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾؟ هل يوجد قلب يتلقى الآية لا بوصفها قصة بعيدة، بل رسالة حاضرة؟ هل من إنسان يزجر نفسه قبل أن يزجره العذاب؟ هل من قارئ يفهم أن السفينة ليست خشباً مضى، بل كل طاعة بينها اليوم لتكون له نجاة غداً؟ وهل من أمة تدرك أن الطوفان قد لا يأتيها ماءً، بل قد يأتيها انهياراً في قيمها، أو استبداداً يبتلع حريتها، أو شهوةً تلتهم أسرهما، أو كراهيةً تمزق نسيجها، أو وفرةً مادية تغرق فيها روحها؟

و﴿مُدْكِرٍ﴾ أصلها متذكر، ثم أدغمت حروفها حتى جاءت بهذه النبرة القوية، كأن الكلمة نفسها توقظ السامع من كفته: انتبه، لا تمر، لا تضع القصة في متحف الماضي. فالتذكر القرآني ليس استرجاع معلومة غائبة فحسب، بل عودة الحقيقة إلى مركز الوعي حتى تغير القرار؛ ولهذا قد يحفظ الإنسان القصة ولا يكون مدكراً، وقد يردد تفاصيلها ولا يعبر منها إلى نفسه.

إن السؤال لا يطلب جماهير، قال: ﴿هَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ بصيغة المفرد، وكأن واحداً يستيقظ يكفي لبدة النجاة، وكأن السورة تبحث في كل عصر عن ذلك القلب الذي لا يكتفي بمراقبة السفينة، بل يصعد إليها، ولا يضحك مع الساخرين من الألواح والدرس، بل يمد يده إلى نوح، ولا ينتظر أن يعطي الماء قدميه كي يصدق وعد السماء.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾

بعد أن عرضت السورة التأكيد والدعاء وفتح السماء وتفجير الأرض وحمل السفينة، يأتي السؤال: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾؟ ليس سؤالاً ينتظر جواباً لفظياً، فقد صار الطوفان نفسه هو الجواب، وإِذَا هو سؤال يوقف الإنسان أمام التطابق التام بين الإنذار والنتيجة؛ لقد أُنذِرهم نوح، فسَخَرُوا من الإنذار، ثم جاء العذاب يفسر لهم معنى الكلمات التي رفضوا سماعها.

وجمع بين ﴿عَذَابِي﴾ و﴿نُذْرِي﴾ لأن العذاب لم يأت بلا مقدمات، ولم تنزل العقوبة على قوم لم يُمنَحوا فرصة؛ فقد سبقها نذر متتابعة، ورسول صابر، وزمن ممتد، وحجج متنوعة.

وهذا من تمام عدل الله ورحمته؛ ينذر قبل أن يأخذ، ويفتح الباب قبل أن يحاسب على الإغلاق، ويرسل الكلمة قبل أن يرسل العاصفة. ومن هنا تكون شدة العذاب كاشفة عن عمق الإصرار الذي سبقه، لا عن نقص في الرحمة؛ فالرحمة ظلت تدعوهم قروناً، ولكنهم اختاروا أن يستهلكوا المهلة كلها في التكذيب.

وما زال السؤال قائماً في وجه كل حضارة تسخر من النذر الأخلاقية، وتظن أن امتلاكها التقنية يحصنها من نتائج فسادها: كيف يكون العذاب إذا تحولت أسباب القوة نفسها إلى أبواب انهيار؟ كيف يكون حين يصير الإعلام الذي كان أداة معرفة مصنّعاً للكذب، والاقتصاد الذي كان وسيلة عمران آلة لاقتراس الضعفاء، والعلم الذي كان طريقاً لاكتشاف الحكمة أداة لتوسيع الدمار؟ إن عذاب الأمم لا ينحصر في كارثة طبيعية تنهي وجودها، بل قد يبدأ حين تُسلب قدرتها على رؤية الحق، وحين تحتفل بالأسباب التي تخزها من الداخل.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾

بعد رهبة الطوفان يفتح الله باب القرآن: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾. يا لعظمة الرحمة التي تضع وسيلة النجاة مباشرة بعد مشهد الهلاك؛ كأن السورة تقول: لا أريدكم أن تتقنوا مرتجفين أمام مصير قوم نوح فحسب، بل أريدكم أن تعرفوا أن بين أيديكم ما يحول بينكم وبين مصيرهم. لم يجعل الله طريق التذكر سراً لا يصل إليه إلا الخاصة، ولم يحبس الهداية في طبقة من الكهنة، بل أنزل قرآناً ميسراً للتلاوة والحفظ والفهم والاعتاظ، يأخذ منه العالم بقدر علمه، ويأخذ منه العامي بقدر صدقه، ولا تنقضي عجائبه مهما نتابعت عليه القراءات.

والتيسير لا يعني أن كل معاني القرآن سطحية لا تحتاج إلى علم وتدبر، ولا أن أبواب التفسير تُفتح بلا أدوات، بل يعني أن غايته الكبرى في الهداية والذكر ليست محجوبة عن القلب الصادق؛ فالطفل يحفظ آياته، والعالم يغوص في نظمها، والمنكسر يجد فيه عزاءه،

والحائر يجد فيه بوصلته، والعاصي يسمع فيه نداء العودة، وصاحب العقل يجد فيه فضاء النظر، وكل منهم يقف عند نهر واحد لا ينفد.

قال: ﴿لِلذِّكْرِ﴾، لا للزينة، ولا للبهافة بجمال الصوت وحده، ولا ليبقى حروفاً تُبلى من غير أن تعبر إلى ميزان السلوك. إن التيسير نعمة، لكنه كذلك حجة؛ فإذا كان القرآن ميسراً، فما عذر القلب الذي لا يتذكر؟ وإذا كانت كلماته تتكرر على الأسماع، فما الذي يجعل الإنسان يعرفها ولا يعرف نفسه من خلالها؟ وإذا كان المصحف قريباً من اليد، فلماذا تبقى قيمه بعيدة عن القرار؟

ثم عاد السؤال نفسه: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾. لا يقول: هل من حافظ فقط، ولا هل من قارئ فقط، مع فضل الحفظ والقراءة، وإنما يبحث عن ثمرة ذلك كله: إنسان يستيقظ. فالقرآن لم ينزل ليزيد ثقافة العقل مع بقاء اتجاهه، بل ليقم في النفس قوة تردّها إذا مالت، وتوقظها إذا غفلت، وتردّعها إذا قاربت طريق الهالكين.

وبين السفينة والقرآن رابطة بديعة؛ كانت سفينة نوح ألوّاحاً ودرساً تحمل الأجساد فوق الطوفان، والقرآن سفينة من كلمات موصولة بالوحي تحمل القلوب فوق طوفان الشهوات والشبهات. ومن العجيب أن قوم نوح سخروا من سفينة تُبنى على اليابسة لأنهم لم يروا الماء بعد، كما يسخر بعض الناس من بناء الإيمان في زمن الرخاء لأنهم لم يروا الفتنة بعد؛ فإذا ارتفع الماء عرف الجميع قيمة السفينة، ولكن المعرفة المتأخرة لا تفتح باباً أغلقه الطوفان.

فهل من مدكر يبني اليوم ما يحمله غداً؟ وهل من إنسان يجعل القرآن خشب سفينته، والتقوى دسرها، والإخلاص شراعها، والثقة بالله وجهتها؟ وهل من قلب يدرك أن الرحمة لم تضع أمامه قصة الغرق لتزيد خوفه فحسب، بل مدت إليه بعد القصة مباشرة جبل النجاة: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾؟

عَادُ: حين صارت الرِّيحُ شاهداً على هشاشة القوة

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَايِي وَنَذِيرِ﴾

تطوي السورة صفحة الماء، لكنها لا تطوي قانون المصير، وتقلنا من قوم ابتلعتهم السيول إلى قوم اقتلعتهم الرِّيحُ؛ فجود الله لا تتشابه صورها، وإن كانت جميعاً تتحرك بأمر واحد، والطبيعة التي يراها الإنسان موارد صامته من حوله يمكن أن تتحول، حين يأذن خالقها، إلى رسالة لا تملك الحضارات إيقافها. كانت نهاية قوم نوح بالماء الذي تقوم عليه الحياة، وكانت نهاية عاد بالهواء الذي لا تستغني عنه حياة؛ وكأن الإنسان يُنبه إلى أن النعم لا تكون آمنةً له بمجرد حاجته إليها، بل بأمانه مع واهبها، وأن ما يحويه كل يوم قد يصير عليه إن خرج عن أمر الله جنداً لا يحتمله.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾؛ كلمتان تختصران تاريخ أمة عاتية، عُرِفَت بالقوة والعمران، واستطالت على الناس، وقالت في ذروة اغترارها: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، لكنها حين تقف أمام ميزان القرآن لا يذكر أولاً ارتفاع بنيانها ولا امتداد سلطانها، بل الموقف الذي حدد قيمتها الأخيرة: كذبت. إن الحضارات تكتب تاريخها بالأحجار والفتوحات، أما الوحي فيقرأ تاريخها من مركزها الأخلاقي؛ لأن ما تبنيه الأيدي يمكن أن تنهش القرون، لكن موقفها من الحق هو الذي يستقر في سجل لا تبليه الأيام.

والتكذيب هنا لم يكن جهلاً عابراً، بل رفضاً للإنذار بعد قيام الحجة، ولذلك جاء السؤال مباشرة: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَدَايِي وَنَذِيرِ﴾؟ قدّم العذاب في موضع الاعتبار، كأن القارئ يرى النتيجة قبل أن تُفصل له الصورة، ثم يُدعى إلى أن يقيس بها حقيقة النذر التي سبقتها. فالإنذار الذي يبدو في وقت الرخاء مجرد كلمات يصبح بعد نزول العقوبة تفسيراً وحيداً لما حدث، والكلمة التي ضحك منها المتكبرون تعود فوق أنقاضهم أثقل من كل ما بنوا.

وهذا السؤال لا يريد منا أن نصف شدة العذاب فحسب، بل أن نتأمل عدل المسافة بين النذر والعاقبة؛ كم مرة نُصَحُوا؟ وكم آية رأوا؟ وكم مهلة استنفدوا؟ فالعذاب في القرآن لا ينزل على غفلة من البيان، بل يأتي بعد أن تقف الرحمة طويلاً على الأبواب، حتى إذا اختار القوم أن يجعلوا من المهلة حجة على سلامة طريقهم، جاءهم ما يكشف أن تأخر العقوبة لم يكن غياباً للقدرة، وإنما امتداداً للفرصة.

إن السؤال موجه كذلك إلى كل قوة معاصرة بنت أمنها على امتلاك السلاح والمال والتقنية، ثم حسبت أن التفوق المادي يضعها خارج قوانين الأخلاق؛ فكيف يكون العذاب حين تتحول القوة نفسها إلى باب الضعف، وحين تصبح الوسائل التي صُنعت للحماية سبباً في الخوف، وحين يصير البنيان العالي شاهداً على سقوط أشد دويماً؟ إن عاداً ليست اسماً لقبيلة انقرضت فحسب، إنها الحالة التي تبلغها كل أمة حين تقيس الحق بالقوة بدل أن تقيس القوة بالحق.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾

جاء العقاب في صورة شيء لا تراه العين، لكنها ترى آثاره: ﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾. وما أشد المناسبة بين جرم عاد وعقوبتها؛ قوم اغتروا بالأجساد الصلبة والبنيان الشاخص، فأرسل الله عليهم جنداً لا جسد له في أعينهم، لا يستطيعون إمساكه ولا مصارعته ولا إقامة سور يمنعه من المرور. لقد أرادوا القوة المحسوسة التي تعرض عضلاتها أمام الأبصار، فجاءتهم قوة خفية تنسلل من كل منفذ، لتعلمهم أن سلطان الله لا يحتاج إلى جيش يشبه جيوشهم. و﴿صَرْصَرًا﴾ كلمة تحمل في جرسها قسوة الريح وصوتها وشدة بردها؛ كأن تكرر الصاد والراء يحاكي صفيرها وهي تضرب البيوت والأجساد، فلا تكتفي الآية بأن تخبر العقل، بل تجعل الأذن تكاد تسمع العاصفة. وهذه من أسرار البيان القرآني: أن تختار الكلمة لا لتؤدي المعنى المعجمي وحده، بل لتستحضر بهيئتها الصوتية ظلّ المشهد، حتى تصبح الحروف جزءاً من الصورة.

قال: ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾، فالريح لم تنفلت مصادفةً من اضطراب الطبيعة، وإنما أرسلت، وكل مرسل يحمل أمر مرسله ويقف عند الحد الذي رسمه له. قد تعصف الرياح في المكان نفسه فيكون فيها نجاة لمؤمن وعذاب لمكذب، لأن القضية ليست في حركة الهواء وحدها، بل في التقدير الذي يسوقها. والقرآن لا يمنع الإنسان أن يدرس أسباب الظواهر، لكنه يمنعه من أن يجعل تفسير الكيفية بديلاً عن الإيمان بمن أنشأ الكيفيات؛ فعرفة ضغط الهواء لا تنفي أن الريح خلق الله، كما أن معرفة تركيب الدواء لا تنفي أن الشفاء بإذنه.

﴿فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾؛ لم يكن اليوم نحساً في ذاته، ولا لأن الزمن قوةً مستقلة تجلب الشر، وإنما كان نحساً عليهم بما استمر فيه من العذاب الذي استحقوه. فالقرآن يحررنا من خرافة التشاؤم بالأيام والأعداد، ويعلبنا أن الشؤم الحقيقي ليس في يوم يطل على الإنسان، بل في عمل يلقي أثره في ذلك اليوم. قد يكون الزمن نفسه على قوم محنة وعلى آخرين نجاة، كما كان البحر طريقاً لموسى وقبراً لفرعون، فلا يلو من الإنسان يومه قبل أن يراجع طريقه.

ووصف النحس بأنه ﴿مُسْتَمِرٌّ﴾؛ لأن العذاب لم يكن هبةً عابرة تهدأ بعد لحظات، بل لازهم وامتد عليهم، حتى صار الزمن نفسه كأنه يحمل العقوبة. كانوا قد استمروا في التكذيب، فجاءهم يوم يستمر فيه أثر ما اختاروا؛ فالذنوب التي يصر عليها الإنسان ربما يصنع استمرارها يوماً لا يستطيع أن يوقف امتداده، وما يبدأ قراراً صغيراً في النفس قد ينتهي مناهجاً كاملاً يحيط بالحياة.

وفي واقع الإنسان المعاصر رياح كثيرة لا تُرى وهي تقتلع المعنى من داخله؛ موجات من الاستهلاك، وضغوط من التقليد، وأعاصير من الأخبار والصور، تمر في الوعي حتى تترك الإنسان قائم الجسد مقتلع الروح. وليس كل هلاك أن يسقط البدن على الأرض، بل قد يبقى الإنسان حياً في الظاهر وقد اقتلعت منه بوصلته، وصار يتنقل حيث تدفعه رياح السوق والجمهور والشهوة، لا حيث يقوده الحق.

﴿تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعٍ﴾

لا تقول الآية إن الريح دفعت الناس أو أسقطتهم فحسب، بل ﴿تَنْزِعُ النَّاسَ﴾؛ والنزع اقتلاعٌ بشدة، كأن الريح تصل إلى جذور ثباتهم الوهمي فتجتثهم من الأرض التي تفاخروا بسلطانهم عليها. لقد ظنوا أن أقدامهم راسخة، وأن أجسادهم الفارهة وأبنيتهم المحكمة تمنحهم حصانة، فجاءت الريح لا تتعامل مع مظاهر قوتهم، بل تنزعهم نزعاً، كما تنزع الأشياء التي لم يكن لها في الحقيقة من ذاتها قرار.

ثم يرسم القرآن صورتهم بعد أن كانوا يسألون: من أشد منا قوة؟ فإذا هم ﴿كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعٍ﴾؛ أصول نخلٍ سقطت واقتلعت من مغارسها، خاوية لا ثمر فيها ولا حياة. واختيار النخل يضاعف المفارقة؛ فهو طويل شامخ، يوحى للناظر بالقوة والارتفاع، كما كانت أجساد عاد وبنيناها، لكن الجذع إذا انقعر صار طوله عبثاً، وصارت قامته الممدودة علامة على شدة سقوطه لا على علوه.

و﴿مُنْقَعٍ﴾ تصور الشيء وقد اقتلع من قعره، فلا أمل في أن يستعيد وقفته بمجرد أن تهدأ الريح؛ إنها نهاية وصلت إلى الجذر، لأن الفساد نفسه كان قد وصل إلى الجذر. فلألم لا تنقذها الزخارف إذا تعفن أصلها، ولا يحميها ارتفاع المباني إذا انخفض ميزانها، ولا ينفعها أن تبقى صورتها واقفة في الدعاية بينما روحها منقعة من الداخل.

وكانوا قبل العذاب أناساً بأسماء وأنساب ومنازل ومكانة، ثم اختصرهم المشهد في ﴿أُعْجَازُ نَخْلٍ﴾؛ فالمتكبر الذي أراد أن يكون فوق الناس انتهى شيئاً ملقى لا يملك لنفسه حركة. وهذه من أشد صور القيامة المبكرة في التاريخ؛ إذ تسقط الألقاب عن أصحابها قبل أن تسقط أجسادهم، ويكشف العذاب مقدار الوهم الذي كان يسكن أسمائهم.

إن حضارة اليوم تشيد أبراجاً تكاد تناطح السحاب، وتعرض قوتها في هياكل ضخمة، لكن الآية تسألها عن الجذور: ما الذي يحمل هذه القامة؟ أعدل أم ظلم؟ أم رحمة أم اقتراس؟ توحيد أم عبودية للمادة؟ فليس الخطر أن يكون البناء قصيراً، بل أن يكون طويلاً منقعر

الجدور؛ لأن الريح حين تأتي لا تقيس ارتفاع الصورة، بل تمتحن عمق الأصل الذي تحمل عليه.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾

يتكرر السؤال بعد أن اكتملت الصورة، لكنه لا يتكرر بلا إضافة؛ ففي المرة الأولى جاء قبل تفصيل العذاب ففتح باب الترقب، وهنا يأتي بعد أن رأينا الريح تنزع الناس كأعجاز نخل منقعر، فيدفعنا إلى إعادة النظر في المشهد لا بوصفه خبراً، بل بوصفه جواباً عن موقف. فكل جسد ملقى كان وراءه يوماً قلب يسمع الإنذار، وكل بيت هدمته الريح كان قد دخله صوت هود عليه السلام، وكل نهاية مفرعة سبقتها فرصة كان يمكن أن تغيرها.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي﴾؟ كيف كان حين واجهت قوة السماء قوة زعم أهلها أنه لا يغلبها أحد؟ وكيف كان حين كشف أن أجسادهم، مهما عظمت، لا تساوي أمام الريح إلا جذوعاً خاوية؟ ثم ﴿وَنُذْرِي﴾؛ وكيف كانت إنذاراتي التي استهانوا بها؟ لقد كانت رحمة قبل أن يكون العذاب عدلاً، وكانت سبيلاً إلى النجاة قبل أن تصبح حجة على المعرضين.

والسؤال يربّي في النفس حساسية الإنصات للذير الصغير قبل أن يأتي الحدث الكبير؛ فقد ينذر الإنسان اضطراب قلبه قبل انهيار حياته، وتندره قسوة تسلسل إلى خلقه قبل أن يخسر أحبابه، وتندّر المجتمع مظلمة صغيرة قبل أن يصير الظلم نظاماً، وتندّر الحضارة أسرة تنفك قبل أن يصير التفكك هوية جيل. ومن الحكمة ألا ينتظر المرء الريح الصرصر ليعترف بأن الجذر كان ضعيفاً، بل يختبر جذوره وهو ما يزال واقفاً.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾

للمرة الثانية يجيء هذا النداء بعد مصرع أمة، وكأن القرآن باب الرحمة المفتوح بين أبواب العذاب؛ لا يترك القلب غارقاً في الخوف، بل يضع أمامه طريقاً واضحاً: الذكرك. إنك

لا تستطيع إعادة عاد إلى الحياة، ولا رد الريح عن أجسادهم بعد أن انتهى أمرهم، لكنك تستطيع ألا تكون نسخة أخرى منهم، وتستطيع أن تأخذ من قصتهم ما يصنع فيك نجاة.

وال تكرار هنا يشبه اليد التي تهز النائم مرة بعد مرة؛ فإن لم يوقظه الطوفان فلتوقظه الريح، وإن مر بقصة نوح بوصفها تاريخاً فهذا هو عاد تضع القانون أمامه في صورة أخرى. تتغير الأمة، وتتغير الرسول، وتتغير أداة العذاب، لكن السؤال لا يتغير: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾؛ لأن الأزمة في كل مرة ليست نقص الآيات، بل غياب القلب الذي يحولها إلى ذكرى حية.

وقد يقرأ الإنسان قصة عاد ثم يظن أنه بعيد عنها لأنه لا ينحت الجبال ولا يسكن الأحقاف، لكنه يقترب منها كلما ظن أن ما في يده من قوة يمنحه الحق، وكلما احتقر من هو أضعف منه، وكلما جعل نجاحه المادي دليلاً على رضا الله عنه، وكلما سأل بلسان الحال: من أشد مني قوة؟ والقرآن ميسر لكي يكشف هذه البذور قبل أن تكبر؛ فن رحمته أنه لا ينتظر حتى يصبح الإنسان عاداً كاملة، بل يريه أول ملامح عاد في قلبه لعله يقتلعها بالتوبة.

ثمود: حين خرجت الآية من الصخر ولم يخرج العناد من القلب

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾

نتوالى الأمم في السورة بسرعة تشبه سرعة سقوط الحجب يوم القيامة؛ فبعد عاد تأتي ثمود، وبعد الريح تأتي الناقة، وبعد القوة الجسدية يأتي الامتحان في طاعة أمر واضح محدود. ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾؛ والنذر جمع، مع أن الرسول واحد، لأن إنذاره تكرر، ولأن كل آية جاءهم بها كانت نذيراً، ولأن الرسائل في أصلها سلسلة واحدة؛ فمن كذب رسولاً فيما جاء به من عند الله فقد وقف في الجهة المقابلة لموكب النبوة كله.

ولم تكن ثمود أمة بدائية عاجزة؛ لقد امتلكت من القوة والهندسة ما جعلها تخت من الجبال بيوتاً آمنة في ظلها، وتحول الصخر إلى عمران. ولكن القدرة على تشكيل الحجر لم تمنحها القدرة على تشكيل القلب وفق الحق؛ فقد يرقى الإنسان في أدواته ويبقى بدائياً في أخلاقه، وقد يشق الجبال ولا يستطيع أن يشق في نفسه منفذاً للنور، وقد يبني مسكناً يصمد أمام العواصف ولا يبني ضميراً يصمد أمام الشهوة.

﴿كَذَّبَتْ﴾؛ فعادت الكلمة نفسها التي اختصرت قوم نوح وعاد، لتعلن أن تنوع المظاهر لا يغير وحدة المرض. قد يسكن المكذب سفينة على شاطئ، أو قصرًا في الأحقاف، أو بيتاً منحوتاً في الجبل، وقد يعيش في مدينة حديثة تحيط بها الشاشات، لكن جوهر الموقف واحد: أن تبلغه النذر ثم يختار هواه.

﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾

يكشف قولهم منطق الرفض الذي تكرر عبر التاريخ: ﴿أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ﴾؟ لم يناقشوا صدق ما جاء به صالح عليه السلام، بل جعلوا بشريته ووحده سبباً لرفضه. هو بشر

مثلهم، فلماذا يتبعونه؟ وهو واحد وهم جماعة، فكيف يخضع الجمع للواحد؟ لقد قاسوا الحقيقة بعدد أتباعها، وقاسوا الرسول بصورته البشرية، ولم يدركوا أن اصطفاء الله هو الذي يرفع حامل الرسالة، وأن الحق لا يحتاج إلى كثرة كي يكون حقاً.

وفي قولهم: ﴿مَنَّا﴾ شيء من حسد القريب؛ فكثيراً ما يقبل الإنسان الحكمة إذا جاءته من بعيد، فإذا خرجت من بين قومه ثقل عليه أن يعترف بفضل صاحبها، لأنه يعرف بشريته ويرى يومياته، فيحجب المألوف عنه موضع الاصطفاء. أرادوا رسولاً لا يشبههم، ولو جاءهم ملكٌ لقالوا: لا نستطيع الاقتداء به؛ وهكذا لا تنتهي ذرائع القلب الذي لا يريد الطاعة، لأن الاعتراض ليس بحثاً عن صورة مناسبة للحق، بل بحثاً عن منفذ للهروب منه.

ثم قالوا: ﴿وَاحِدًا﴾؛ وكأن الوحدة عيب في الحجّة، مع أن رجلاً واحداً يحمل كلمة الله أثقل في ميزان الحق من مدينة كاملة تحمل ضلالها. إن العدد يصف حجم الجماعة، ولا يصف قيمة الموقف؛ فقد يكون الواحد أمة في يقينه، وتكون الأمة حشداً من الأفراد الذين سلم كل منهم عقله للآخر.

وقلبوا الموازين فقالوا: ﴿إِنَّا إِذَا لَفِئَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾؛ أي إن اتبعناه فنحن في ضلال وجنون أو شقاء وعذاب. سما الهداية ضلالاً، والنجاة شقاءً، لأن المصطلحات حين تنفصل عن ميزان الوحي تصبح أدوات في يد الهوى؛ يستطيع الباطل أن يسمي الاستقامة عقدة، والتفلسف حرية، والجبن حكمة، والظلم مصلحة، ثم يطلب من الناس أن يعيشوا داخل الأسماء بدل أن ينظروا إلى حقائقها.

و﴿سُعُرٍ﴾ تحمل معنى الجنون والاضطراب، وتحمل معنى النيران والعذاب؛ وكأنهم اتهموا المؤمنين بما كانوا هم متجهين إليه: عاشوا سعي الهوى في نفوسهم، ثم انتهوا إلى سعي العاقبة. وهذا شأن الباطل كثيراً؛ يسقط مرضه على أهل الحق، فيتهم الصادق بالكذب، والعفيف بالكبت، والثابت بالتعصب، حتى لا يرى القوم حقيقتهم منعكسة فيمن يخاصمونه.

﴿الَّتِي الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرُّ﴾

ينكشف الحسد صريحاً: ﴿الَّتِي الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا﴾؟ ليست مشكلتهم أن الذكر باطل، بل أنه نزل على صالح لا عليهم؛ وكأنهم يريدون أن يختار الله رسوله وفق مقاييس وجاهتهم. إن الكبر لا يرفض الحقيقة دائماً لأنها غير مقنعة، بل لأنها جاءت على يد من لا يريد المتكبر الاعتراف بفضله.

وسموا الوحي ﴿الذِّكْرُ﴾ وهم في مقام إنكاره؛ فالكلمة القرآنية تكشف حقيقة ما جاءهم وإن لم يعترفوا بها. إنه ذكر يعيد الإنسان إلى فطرته، ويذكره بربه ومصيره، ويوقظه من سُكر الاعتقاد؛ ولهذا ثقل على أصحاب المصالح، لأن من استيقظ بالذكر يصعب أن يبقى عبداً للأوهام التي صنعتها النخبة المتسلطة.

ثم قفزوا من السؤال المتعجب إلى الحكم القاطع: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرُّ﴾. لم يقدموا دليلاً بين السؤال والحكم؛ فالهوى لا يحتاج في محاكمه إلى بينة، يكفيه أن يكرر التهمة بصيغة المبالغة. قالوا: ﴿كَذَّابٌ﴾ لا كاذب، ليضخموا الوصف، وقالوا: ﴿أَشِرُّ﴾ أي بطر متكبر متجاوز للحد، فنسبوا إليه الكبر لأنهم لم يستطيعوا رؤية الكبر الذي ملأ اعتراضهم.

اتهموا صالحاً بأنه يطلب الارتفاع عليهم، مع أنه كان يدعوهم إلى الارتفاع من عبادة الخلق إلى عبادة الخالق؛ ولكن من اعتاد السيادة يفسر كل دعوة إلى المساواة أمام الله مؤامرة على مكانته، ومن بنى نفوذه على غفلة الناس يرى في الذكر خطراً شخصياً عليه. وكم من مصلح اتهم بحب الظهور لأنه قال كلمة أزججت المستفيدين من الصمت، بينما كان الذين يتهمونهم أشد الناس تعلقاً بالمكانة التي هددتها كلمته.

﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ﴾

لا يدخل الوحي في مهارة مع اتهامهم، بل ينقل القضية إلى المحكمة التي لا تضيع فيها الحقائق: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾. والغد هنا قريب مهما بدا بعيداً؛ لأن كل ما سيأتي قريب،

ولأن عمر الأمم، وإن امتد، ليس إلا يوماً ينتهي إلى غده. كانوا يتحدثون بثقة من يظن أن الحاضر ملكه، فجاء المستقبل في الآية ليهدم احتكارهم للحكم.

﴿مَنْ الْكَذَّابُ الْأَشْرُ﴾؛ ستعود التهمة إلى موضعها الصحيح، وسيتبين أهو صالح الذي بلغ بأمانة، أم الذين كذبوا آية الله واستكبروا؟ قد يستطيع الظالم أن يوزع الأوصاف في الدنيا بما يملك من منابر، لكنه لا يملك أن يثبتها في سجل الحقيقة؛ فكل أمر مستقر، وكل اسم سيعود إلى مسماه، وكل قناع ستأتي لحظة يسقط فيها عن الوجه.

وفي ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ تهديد أشد من تفصيل العقوبة؛ لأن الكلمة تترك الغد مفتوحاً على هول لا يحيطون به، ولأن العلم الذي سيأتيهم ليس معرفةً تنفع، بل يقيناً متأخراً يقع بعد انقضاء زمن الاختيار. وما أقسى أن يعرف الإنسان الحق في اللحظة التي يفقد فيها القدرة على اتباعه، وأن تنكشف له الخدعة بعدما دفع حياته ثمناً لها.

﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَبِعْهُمْ وَأَصْبِرْ﴾

جاءت الآية التي طلبوها: الناقة، علامة ظاهرة تدخل في نظام حياتهم اليومي، لكن الله سماها ﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾؛ لأن الآيات ليست مجرد مشاهد تُدهش العين، بل امتحانات تكشف القلب. قد يظن الإنسان أن ظهور المعجزة ينهي الاختبار، لكن المعجزة نفسها تبدأ اختباراً أشد: هل يلتزم بما تقتضيه؟ هل يحترم حدود الله بعد أن رأى الآية؟ أم يريد الدليل من غير أن يقبل سلطان الدليل؟

قال: ﴿مُرْسِلُو النَّاقَةِ﴾، فهي رسالة من عند الله بوصفها آية، ولها حرمة ليست ناشئة من ذاتها وحدها، بل من نسبتها إلى أمره. وحين يضع الله في شيء علامةً له، يصبح موقف الإنسان منه موقفاً من الأمر الذي يحمله؛ ولذلك لم يكن عقر الناقة اعتداءً على حيوان فحسب، بل تمرداً واعياً على الله بعد ظهور حجته.

﴿فَارْتَبِعْهُمْ﴾؛ انتظر ما يصنعون، فقد انتقلت القضية من طلب الآية إلى امتحان الاستجابة. ﴿وَأَصْبِرْ﴾؛ وهي أبلغ من اصبر لما فيها من زيادة المبنى الدالة على شدة الصبر، وكأن صالحاً سيشهد استنزافاً طويلاً ومكراً متصاعداً، وسيحتاج إلى أن يجمع قلبه كله على

الثبات. إن انتظار نتائج الباطل مؤلم، ولا سيما حين يرى النبي القوم يقتربون بأيديهم من مصيرهم، لكنه لا يملك أن يسلبهم الاختيار؛ عليه أن يبين ثم يصطبر حتى يحكم الله.

﴿وَيَنْبَغُ أَنْ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ﴾

كان الامتحان واضحاً عادلاً: الماء قسمة بينهم وبين الناقة، لها يوم ولهم يوم، وكل نصيب يحضره صاحبه في وقته. لم يُحرّموا الماء مطلقاً، ولم يُطلب منهم ما لا يطيقون؛ إنما طُلب منهم أن يقبلوا حداً يذكرهم بأن الموارد ليست ملكاً مطلقاً لأهوائهم، وأن في الأرض حقاً قرره الله لغيرهم.

وهنا يتجاوز امتحان الناقة صورته التاريخية إلى سؤال أخلاقي خالد: هل يستطيع الإنسان أن يقبل أن لآخر نصيباً في الماء والحياة؟ وهل يضبط شهوته إذا قيل له: ليس كل ما تقدر على الاستيلاء عليه حلالاً لك؟ إن الطغيان يبدأ حين تتحول القوة إلى حجة ملكية، وحين يقول الأقوياء: ما دمنا قادرين على أخذ المورد كله، فلماذا نقبل القسمة؟

﴿كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ﴾؛ لكل واحد وقت معلوم يحضره، وفي هذا تنظيم يمنع النزاع لو استسلموا لأمر الله. لكن النفس المستكبرة لا يزعمها نقص المورد بقدر ما يزعمها وجود حد لا تضعه هي؛ فقد كان بوسعهم أن ينتفعوا بالماء وفق القسمة، إلا أن الناقة ظلت تمر أمامهم بوصفها تذكرياً يومياً بأنهم ليسوا السادة المطلقين، ولذلك أرادوا إزالتها.

إن عالم اليوم، وهو يصارع على الماء والطاقة والثروة، محتاج إلى أن يسمع هذه الآية؛ فالأزمات لا تنشأ دائماً من قلة الموارد، بل من غياب العدل في قسمتها، ومن شهوة طرف يريد أن يشرب نصيبه ونصيب غيره. وكل حضارة تعقر حق الضعفاء لكي تستأثر بالماء تحمل في داخلها شيئاً من ثمود، وإن غيّرت اسم الناقة إلى موارد أو حقوق أو أوطان.

﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾

لم تبدأ الجريمة بيد الجماعة كلها، بل ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ﴾؛ اختاروا رجلاً منهم يتولى التنفيذ، لكنه كان صاحبهم، نتاج بيئتهم، ولسان إرادتهم، ولهذا نُسب العقر في مواضع أخرى إلى القوم جميعاً. إن المجتمع قد يرتكب جريمته بيد فرد، فإذا أمره أو حرّضه أو رضي عنه أو حماه بعد فعلته، صارت يده امتداداً لأيدي الجميع.

وفي كلمة ﴿صَاحِبَهُمْ﴾ إدانة خفية للصحبة التي تتحول إلى تحالف على الإثم؛ فلم يكن غريباً تسلل إليهم، بل واحداً منهم يمثل قيمهم حين بلغت ذروتها. فالجرم الكبير لا ينبت غالباً في فراغ، وإنما ينمو في مجتمع يصفق للقسوة، ويجعل الجراً على حدود الله بطولة، ثم يتبرأ منه بعد حلول الكارثة كأنه لم يصنع المناخ الذي أخرجه.

﴿فَتَعَاطَى﴾؛ مد يده إلى الأمر العظيم، وتكلف اقتحامه بجرأة، كأن الجريمة كانت موضوعة أمامه فتناولها. وفي الكلمة معنى الإقدام المتعمد، لا الزلة العارضة؛ لقد عرف الناقه، وعرف حرمتها، وعرف الإنذار، ثم تقدم. ﴿فَعَقَرَ﴾؛ كلمة قصيرة حاسمة تنهي زمن المهلة، وفي سرعتها تشعر أن لحظة واحدة قد تهدم حصيلة أعوام إذا كانت خاتمة إصرار طويل.

وما أكثر الذين لا يعقرون بأيديهم، لكنهم ينادون من يفعل؛ يصنعون خطاب الكراهية ثم يزعمون البراءة من الدم، يشرعنون الظلم ثم يتظاهرون بالدهشة حين يقع، يختارون صاحبهم ويدفعونه إلى الجريمة، ثم يخفون أصواتهم عند مجيء الحساب. والقرآن يرد المسؤولية إلى دائرتها كاملة: اليد التي نفذت، والألسنة التي نادت، والقلوب التي رضيت.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾

عاد السؤال للمرة الثالثة، لكنه الآن يأتي بعد كلمة واحدة غيّرت مصير القوم: ﴿فَعَقَرَ﴾. كيف كان العذاب بعد أن تحولت الجراً الباطنة إلى فعل؟ وكيف كانت النذر

التي سبقت العقر وتلته؟ لقد كان الحد واضحاً، والقسمة معلومة، والآية قائمة أمام العيون، فلا يستطيعون أن يقولوا إن الطريق التبس عليهم.

إن تكرار السؤال يربط السبب بالنتيجة حتى لا يرى الإنسان العقوبة حادثاً منفصلاً عن الجريمة؛ فما يسميه الناس كارثة قد يكون آخر حلقة في سلسلة طويلة من الاختيارات. ولأن البشر يميلون إلى تذكر ساعة الانهيار ونسيان العقود التي صنعتها، يعيد القرآن النذر إلى المشهد: لا تنظروا إلى العذاب وحده؛ انظروا كذلك إلى الأصوات التي سبقت وحذرت، وإلى الفرص التي ضاعت، وإلى النافذة التي عُقِرت.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمٍ مُّخْتَضِرٍ﴾

كان فعلهم واحداً حاسماً: ﴿فَعَقَرُوا﴾، فجاءت عليهم ﴿صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾. لم يحتاج إهلاك الأمة القوية إلى جيوش متتابعة ولا حرب طويلة؛ صيحة واحدة أنهت الحركة والضجيج والجدال. وفي ﴿وَاحِدَةً﴾ تحقير ضمني لقوتهم أمام القدرة الإلهية؛ فما حسبه حصوناً راسخة لم يحتمل صوتاً واحداً حين حمل أمر الله.

والصيحة تناسب جرميتهم من وجه آخر؛ لقد نادوا صاحبهم، نخرج من ندائهم العقر، ثم جاءتهم صيحة تطوي نداءاتهم كلها. كان صوت الجماعة يحرّض رجلاً على قتل الآية، فجاء صوت لا يملكون أمامه تحريضاً ولا دفاعاً؛ وكأن الضجيج البشري الذي أسكت نداء الحق في الدنيا أسكته صيحة القضاء في لحظة.

﴿فَكَانُوا كَهَشِيمٍ مُّخْتَضِرٍ﴾؛ تحول القوم الذين نحتوا الصخر إلى بقايا نبات يابس متهشم يجمعه صاحب الخطيرة لدوابه، فتدوسه الأقدام ويتفتت. يا له من انتقال: من بيوت منحوتة في الجبال إلى هشيم مكسور، ومن صلابة يتفانحون بها إلى يابس لا تماسك فيه. لم تنفعهم هندسة الحجر حين انهارت هندسة الضمير، ولم تنجهم الجدران لأن الخطر لم يأت من باب يمكن إغلاقه، بل جاء بأمر من يملك أصوات السماء والأرض.

والمختظر يجمع الأغصان والحشائش ليصنع حظيرته، ثم يبقى منها الهشيم المتفتت؛ وهذه الصورة تجعل القوم بعد هلاكهم جزءاً من أرض كانوا يظنون أنهم يملكونها، وترد

أجسادهم إلى مادة لا قوة لها ولا اسم. إن المتكبر يسعى إلى تخليد أثره، فإذا لم يكن أثره موصولاً بالحق فقد يخلد بوصفه هشيماً تنعظ به الأجيال.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾

بعد الصبيحة يأتي صوت القرآن هادئاً قريباً ميسراً، وبعد أن صاروا كهشيم المحتظر، تُعرض على القارئ فرصة ألا يكون هشيماً في ربح المصير. للمرة الثالثة يفتح السؤال بابه: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾؟ وهل بقي بعد الطوفان والريح والصبيحة من يحتاج إلى برهان على أن الكذيب لا يصنع نجاة؟

لقد كانت ثمود تملك آية حسية تمشي بينها: ناقة تراها العيون، أما نحن فبين أيدينا آية باقية تخاطب الأجيال: القرآن. والناقة كانت فتنة لهم في قسمة الماء، والقرآن فتنة لنا في قسمة الحياة: كم نعطيهِ من وقتنا؟ وكم نسمح له أن يراجع رغباتنا؟ وهل نقبل حدوده حين تقف بيننا وبين ما نشتهي، أم نعقر أثره في حياتنا مع إبقاء حروفه في المصاحف؟

قد لا يرفع الإنسان سيفاً على آية، لكنه يستطيع أن يعطلها بالتأجيل، وأن يعقر سلطانها بالفصل بين التلاوة والعمل، وأن يحتفظ بصوتها في المناسبات ثم يمنعها من دخول السوق والسياسة والأسرة والقلب. ولذلك لا يكفي أن نقول إننا لم نفعل فعل ثمود؛ بل ينبغي أن نسأل: هل أعطينا آية الله حقها؟ وهل قبلنا قسمة الله وحدوده؟ أم أننا نريد قرآناً يبارك اختياراتنا ولا يغيرها؟

إن التيسير رحمة لا حدود لها، لكنه يضع الإنسان أمام مسؤوليته؛ فقد قُرب إليه الذكر، وبُينت له الطريق، وعُرضت أمامه مصائر من رفضوه، ثم ترك له السؤال مفتوحاً كأنه يناديه باسمه عبر القرون: بعد أن رأيت الماء والريح والصبيحة، وبعد أن سمعت عن الألواح والدرر والناقة والهشيم، فهل تكون أنت ذلك المدكر الذي تبحث عنه السورة؟

قوم لوط: حين أرادت الشهوة أن تطفئ نور الفطرة

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالْأَنْذَرِ﴾

تمضي السورة من طغيان القوة عند عاد، إلى التمرد على حدود الله عند ثمود، ثم تدخل بنا إلى لون آخر من ألوان الانهيار: فساد الفطرة حين يتحول من انحراف مستتر إلى هوية جماعية تصادم الطهر وتحاصر أهله. ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالْأَنْذَرِ﴾؛ ويجيء التأنيث في الفعل مراعاةً لمعنى الجماعة، كأن الجماعة كلها تحولت إلى كلمة تكذيب واحدة، تذوب فيها مسؤولية الفرد ظاهرياً، مع أن كل فرد سيقف أمام الله وحده.

والنذر هنا لم تكن كلمات تهددهم من بعيد، بل دعوةٌ تعيدهم إلى أصل إنسانيتهم، وتحمي الأسرة، وتحفظ الفرق الذي أقام الله عليه نظام الخلق، وترد الشهوة إلى مكانها الصحيح خادمةً للعمران لا معولاً يهدمه. لكنهم لم يروا في الإنذار رحمة، لأن الشهوة إذا استولت على ميزان الإنسان جعلته يرى القيد الذي يحبسه سجنًا، ويرى الباب الذي يمنعه من الهاوية اعتداءً على اختياره.

بدأت قصتهم بالكذب؛ لأن الانحراف الأخلاقي الكبير يحتاج قبل أن يستقر إلى إبعاد صوت الحق، فالفطرة قد تحتج، والضمير قد يؤنب، والرسول قد يذكر، ولا يستطيع الهوى أن يحكم بهدوء ما دامت هذه الأصوات حاضرة. ولذلك يصنع الإنسان حول شهوته خطاباً يبررها، ثم يهاجم كل نذير يكشف حقيقتها، حتى لا يعود الصراع على الفعل وحده، بل على حق الوحي في تسميته والحكم عليه.

وقوم لوط لم يكتفوا بأن يقعوا في المعصية، بل أنكروا ميزان الطهر نفسه، وآذوا من أراد أن يبقى نقيًا، حتى صار قلب المجتمع مقلوبًا: الفاحشة مألوفة، والطهارة تهمة، والانحراف موضع اجتماع، والاستقامة سبباً للطرد. وهذه هي اللحظة الأشد خطراً في حياة الأمم؛ ليست حين يوجد فيها مذنبون، فالبشر يخطئون ويتوبون، وإنما حين تفقد قدرتها على تسمية

الخطأ خطأً، وحين تعاقب من يذكرها بحدود الله، وحين يصبح الضمير نفسه غريباً يحتاج إلى الاعتذار عن وجوده.

والقرآن حين يعرض قصتهم لا يفتح باب التشهير بأصحاب المعاصي، ولا يبيح للمؤمن أن يتكبر على المبلى أو ينسى حاجته هو إلى الهداية، بل يبين فداحة تحويل المعصية إلى مشروع تمرد على الله، ويدعو إلى رحمة الإنسان بحمايته من الذنب لا بتزيين الذنب له. فليست الرحمة أن نطمئن الغريق إلى أن الماء لا يقتله، بل أن نمد إليه يداً بلا إذلال، ونفتح له باب التوبة بلا يأس، ونرفض في الوقت نفسه أن يُعاد تعريف الغرق بوصفه نوعاً من السباحة.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾

جاءهم ﴿حَاصِبًا﴾؛ ريحاً ترميهم بالحجارة، أو عذاباً يحمل الحصباء عليهم، فتتحول السماء فوق القرية إلى جهة تقذفهم بما لم يستطيعوا رده. وكما حملت الريح لقوم عاد قوة الاقتلاع، حملت هنا قوة الرجم، لأن جند الله الواحد قد تنوع آثاره بحسب الأمر الذي أرسل به، ولأن المادة البسيطة التي تطوُّها الأقدام كل يوم يمكن أن تصير، إذا حملت القضاء، فوق قدرة الجماعة كلها.

﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾؛ يظل التعبير يربط الأحداث بمرسلها، فلا يُترك القارئ أمام طبيعة تحرك بلا معنى، ولا أمام مصادفة عمياء صادفت ساعة فسادهم، بل أمام سنة أخلاقية وتقدير إلهي. لم يكن الحاصب فعلاً منفصلاً عن التكذيب، بل جواباً جاء بعد النذر والإصرار ومحاصرة بيت النبوة ومحاولة الاعتداء على ضيوفه.

لكن الاستثناء يفتح شقاً من النور في قلب الظلمة: ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾. لم يكن العذاب أعمى يصيب البر والفاجر بلا تمييز، بل كان يعرف بأمر الله طريقه، وكان الاستثناء محفوظاً قبل أن تنزل أول حصاة. وما أطمأن قلباً يعلم أن الله يستطيع أن يفصل بين عبيد في المكان نفسه، فيحيط أحدهما بالعقوبة ويحيط الآخر بالنجاة، وأن القرب المكاني من الهالكين لا يساوي الاشتراك في مصيرهم ما دام القلب قد فارق طريقهم.

﴿نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾؛ في آخر الليل، حين يوشك الظلام أن ينقشع ويقترب الفجر. واختيار السحر ينسج حول النجاة ظلاً بالغ الرقة؛ فالقرية غارقة في ليلها الأخلاقي، وآل لوط يخرجون في سكون الليل الحسي، ثم يأتي الصبح على القوم بعذابهم، ويأتي على المؤمنين ببداية جديدة. إن الساعة نفسها قد تحمل نهايتين مختلفتين: هلاكاً لمن استنفد مهلة الإنذار، وجرّاً لمن صدق واتبع.

والسحر وقت الدعاء والاستغفار والنزول الإلهي الذي يليق بجلال الله كما ثبت في النصوص، ووقت تنزل فيه على القلوب نفحات السكينة؛ فكأن نجاة آل لوط في ذلك الوقت تذكر بأن ظلمات المجتمعات مهما كثفت لا تلغي طريقاً سريعاً يفتحه الله لعباده إلى الفجر. قد يكون المؤمن محاصراً في مدينة انقلبت موازينها، لكن العبرة ليست بكثافة الظلام حوله، بل باتصاله بمن يملك أن يخرج منه في ساعة لا يشعر بها الغافلون.

وفي قوله: ﴿نَجَّيْنَاهُمْ﴾ نسبة النجاة إلى الله مباشرة؛ خرجوا بأقدامهم، واتبعوا أمر الرسول، وساروا في الليل، لكن الله هو الذي نجاهم. فالطاعة سبب، والنجاة فضل، ولا يتكل المؤمن على عمله كأنه يفرض به على الله أماناً، بل يعمل لأنه عبد، ويرجو النجاة لأنها رحمة من ربه.

﴿نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾

لم يقل: نجيناهم لأنهم كانوا أقوياء، ولا لأنهم أحسنوا التخطيط وحده، بل قال: ﴿نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا﴾. فالنجاة، وإن سبقتها طاعة، تظل نعمة لا استحقاقاً متكبّراً، ومن عرف ذلك لم ينظر إلى الهالكين بعين الزهو، بل بعين الخوف على نفسه والامتنان لربه. ليس بين المؤمن والفتنة جدار من طبيعته الخاصة، وإنما توفيق يتفضل الله به، وهداية تستدعي الشكر، وثبات ينبغي أن يسأل في كل حين.

و﴿مَنْ عِنْدِنَا﴾ تمنح النعمة شرف الإضافة وقوة المصدر؛ فهي ليست فرصة عارضة استطاعوا اقتناصها، بل عناية جاءت من عند من يعلم السرائر والطرق والخطوة المناسبة للخروج. وما يأتي من عند الله لا تقاس قيمته بحجمه الظاهر؛ قد يكون إلهاماً بالانسحاب

من موضع فتنة، أو قوة على قول كلمة لا، أو نوراً يريك قبح ما زينه الناس، أو صحة صالحة تمسك بيدك قبل السقوط، وكل ذلك من سفن النجاة التي تمر في الحياة ولا ينتبه الإنسان إلى عظمتها إلا بعد أن يرى أين انتهى الطريق بالآخرين.

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾؛ ربط النجاة بالشكر، لأن الشكر ليس كلمة ثناء باللسان وحده، بل موقف وجودي يرى النعمة من الله، ويحفظها بطاعته، ويستعملها فيما يجب. شكر آل لوط أن استجابوا للأمر، وفارقوا البيئة التي استحكم فسادها، ولم يلتفتوا إلى ما خلفوا وراءهم حين جاء وقت الخروج؛ فالشكر أحياناً أن تترك ما ألفتته حفاظاً على ما آمنت به.

ولم يقل: من شكر النعمة بعد النجاة فحسب، بل جعل النجاة نفسها جزاءً للشكر السابق؛ فمن شكر نعمة الفطرة حفظها الله له، ومن شكر نعمة الوحي بأن اتبعه نجاه الله به، ومن شكر لحظات التنبيه لم يحتج إلى صفة العقوبة. النعم تتوالد بالشكر؛ يبدأ الإنسان بنور صغير يحفظه، فيفتح الله له به نوراً أكبر، ويبدأ بموقف صدق في فتنة محدودة، فيصير ذلك الموقف زاداً لنجاته حين تتسع الفتنة.

أما المجتمع المعاصر فيقيس النعمة بكثرة ما يملك، والآية تعيد تعريفها: قد تكون النعمة الكبرى أن تخرج سالم القلب مما يملكه الآخرون، وأن تبقى فطرتك حية وسط سوق يبيع الفطرة بثن القبول الاجتماعي، وأن يمنحك الله شجاعة الاختلاف حين تكون الجماعة مجتمعة على خطأ. ليست كل خسارة حرماناً، ولا كل مغادرة هزيمة؛ فقد خرج آل لوط من بيوتهم ليلاً لا يحملون عمران القرية، لكنهم حملوا النعمة التي لا تعوض: النجاة.

﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾

لم يفجأهم البطش بلا إنذار؛ ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ﴾ لوط عليه السلام، وبين لهم أن الطريق ليس مفتوحاً بلا نهاية، وأن وراء الحرية مسؤولية، ووراء الإصرار لقاءً مع قدرة الله. والبطشة هي الأخذة الشديدة التي لا يملك المأخوذ منها انفلتاتاً؛ لكن الله أخبرهم بها قبل وقوعها، فجعل من معرفتهم بها فرصة للنجاة لو أرادوا العودة.

﴿فَتَمَارَوْا بِالْأَنْذَرِ﴾، لم يكتفوا بالشك، بل دخلوا في جدال يماري بعضهم بعضاً، يثيرون الشبهات حول الإنذار، ويحولون القضية من موقف أخلاقي واضح إلى دوامة من المماحكة. والمراء ليس بحثاً صادقاً عن الحقيقة؛ فالباحث يتبع الدليل ولو خالف هواه، أما المماري فيريد أن يبقى الحوار مفتوحاً كيلا يصل إلى لحظة القرار، ويستعمل الأسئلة ستاراً يحمي به من الجواب.

وحين تتحد الشهوة بالمراء ينشأ نظام دفاع بالغ التعقيد؛ فالشهوة تختار النتيجة أولاً، ثم يأتي العقل ليجمع لها المبررات، وكلما سقط مبرر اخترع غيره، لا لأن الحقيقة غامضة، بل لأن الاعتراف بها مكلف. ولهذا لم تقل الآية إنهم عجزوا عن الفهم، بل إنهم تماروا بالندر؛ جعلوا موضع التحذير مجالاً للخصومة، حتى أضاعوا في الجدل الوقت الذي كان ينبغي أن ينفقوه في التوبة.

إن ثقافة اليوم تمنح الإنسان قدرة هائلة على العثور على من يوافق هواه؛ يكفي أن يبحث قليلاً حتى يجد من يسمي له رغبته حقاً، ومن يحول اعتياده إلى معيار، ومن يمنحه خطاباً كاملاً يعفيه من مراجعة نفسه. وهكذا يصبح المراء صناعة واسعة لا تسأل: ما الحقيقة؟ بل تسأل: أي حجة تساعدني على الاستمرار فيما أريد؟ وفي هذا الخطر تقف الآية لتقول إن كثرة الجدل لا تغيّر اقتراب البطشة، وإن النذر لا تفقد صدقها لأن المعرضين أحسنوا صناعة الشبهات حولها.

﴿وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرْ﴾

هنا تبلغ الفاحشة ذروة العدوان؛ لم تعد اختياراً يختبئ به صاحبه، بل صارت اقتحاماً لبيت نبي، وطلباً لضيوفه، وانتهاكاً لحرمه الجوار والضيافة والأمان. ﴿رَاودُوهُ﴾؛ أي ألحوا عليه وطلبوا منه أن يخلي بينهم وبين ضيفه، وكأنهم يريدون أن ينتزعوا منه بقية الحواجز التي تحول بينهم وبين شهواتهم. إن الشهوة حين لا يضبطها وحي لا تكتفي بإشباع نفسها، بل تسعى إلى تحطيم حق الآخرين في الرفض، وتحول من رغبة إلى طغيان.

وإضافة الضيف إليه: ﴿ضَيْفُهُ﴾ تستحضر ألم لوط عليه السلام وحرجه؛ هؤلاء في حماه، وقد دخلوا بيته آمنين، والقوم يضغطون عليه وهو لا يملك في الظاهر قوة تدفعهم. وفي تلك اللحظة التي يبدو فيها بيت النبوة محاصراً، نتدخل القدرة من حيث لا يحتسب المعتدون: ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾.

والطمس ذهاب معالم الشيء ونوره، وقد عوقبوا في الأداة التي قادتهم إلى الفتنة؛ أبصروا الضيف بأعين الشهوة، وتبعوا الجمال لا ليكرموه بل ليتكهوه، فطمس النور الذي أساءوا استعماله. وهذا جزاء يحمل شَبْهاً عميقاً بالجرمة: من أبى أن يصير بميزان الفطرة عوقب بذهاب البصر، ومن استعمل النعمة في محاربة المنعم صارت النعمة موضع العقوبة.

لكن العمى الحسي جاء بعد عمى أطول في البصيرة؛ فقد طمس الهوى عيون قلوبهم قبل أن تُطمس عيون وجوههم، ولم يكن فقد البصر في تلك اللحظة إلا ظهوراً خارجياً لحقيقة داخلية عاشوا فيها زمناً. وهذا قانون يتكرر: العقوبات الكبرى كثيراً ما تكشف ما صنعتها الذنوب في النفس قبل نزولها؛ فالإنسان الذي يصر على الكذب يفقد القدرة على تمييز الصدق، والذي يطيل صحبة القسوة يطمس من قلبه موضع الرحمة، والذي يدمن النظر المحرم قد يبقى مبصر العينين لكنه يعجز عن رؤية الإنسان إلا جسداً.

﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِي﴾؛ انتقل الإنذار من صوت يُسمع إلى ألم يُذاق. والذوق أخص صور الإدراك؛ فالشيء الذي كانوا يجادلون فيه من بعيد صار تجربة تحيط بهم، ولم يعد بوسعهم أن يجعلوه فكرة قابلة للممارسة. يا لشقاء من لا يصدق بالنار حتى يذوقها، ولا يفهم الرحمة الكامنة في التحذير إلا بعد أن يتحول التحذير إلى عقوبة.

وجمع بين العذاب والنذر مرة أخرى، فكأن ما ذاقوه هو التصديق العملي للإنذارات التي ردّوها؛ لقد كان في كل كلمة قالها لوط ظلٌّ من ذلك العذاب، لا لأن الدعوة متعطشة لمعاقبتهم، بل لأن صدقها كان يقتضي أن تكون العاقبة كما أخبرت إذا استمروا على الطريق.

﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ﴾

جاءهم الصباح، لكنه لم يحمل المعنى الذي اعتادوه؛ فالناس يستقبلون البكرة بوصفها بدايةً جديدة، أما هم فاستقبلهم فيها ﴿عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ﴾. كانوا قد أمضوا ليلتهم في الإصرار والعدوان، فلما طلع الضوء لم يفتح لهم يوماً آخر للتمتع، بل كشف حضور الجزاء الذي استقر أمره، ولم يعد مجرد إنذار يمكن دفعه بالتوبة.

وفي مقابلة السحر بالبكرة جمال مهيّب: ﴿نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾، ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ﴾. في الجزء الأخير من الليل خرج المؤمنون، وفي أول النهار أخذ المكذبون، وبين النجاة والعذاب مسافة ساعات قليلة، لكنها في ميزان المصير مسافة بين عالمين. وقد ينام الناس في مكان واحد، ثم يصبح فريق في رحمة وفريق في عقوبة، لأن الفروق الحقيقية لا تصنعها الجغرافيا، بل يصنعها الموقف من الله.

و﴿مُسْتَقِرٌّ﴾ تعيدنا إلى قانون السورة: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ﴾. ها هو أمر قوم لوط قد بلغ مستقره، وتحولت الشهوة التي بدت لهم لذة عابرة إلى عذاب ثابت، وتحول الإنذار الذي حسبه كلاماً سيمر إلى حقيقة استقرت فوقهم. إن الأعمال تمشي إلى مستقراتها وإن لم يرها الإنسان وهي تسير، وكل نظرة، وكل رغبة، وكل قرار، وكل ثقافة، تتحرك نحو صورة نهائية ستكشف ماهيتها.

وما أخطر أن يبيت الإنسان على معصية ظاناً أن الصباح ملكه؛ فقد يكون بينه وبين تغير العالم ساعات لا يعلمها. ليست الدعوة هنا إلى خوف يشل الحياة، بل إلى يقظة تجعل المرء لا يؤجل تطهير قلبه، ولا ينام مصراً وهو يملك أن يتوب، ولا يراهن على بكرة لم يكتب له عهد ببلوغها.

﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾

يتكرر الأمر بالذوق بعد استقرار العذاب، لأنهم كانوا قد كرروا التكذيب والمرء. وقد يبدو اللفظ شديداً، لكنه يحمل عدل المطابقة: أرسل الله النذر لتقييم الذوق، فلما أبوا إلا

أن يعطلوا السمع والبصيرة صار الذوق هو الطريق الذي يثبت لهم ما أنكروه. ليست العقوبة بديلاً أولاً عن البيان، بل تأتي حين يستهلك المعاند فرص البيان كلها.

وإضافة العذاب إلى الله: ﴿عَذَابِي﴾ تخلع عنه معنى الفوضى والانتقام البشري المنفلت؛ إنه عذاب العليم الذي لا يظلم، والحكيم الذي يضع الشيء موضعه، والرحيم الذي أنذر قبل أن يأخذ. فلا يجوز للإنسان أن يقيس عدل الله على انفعالات البشر؛ نحن نغضب لذواتنا ونجهل السرائر وزيد ونجاوز، أما حكم الله فمحيط بعلم لا يغيب عنه شيء، وعدل لا يقع معه ظلم مثقال ذرة.

﴿وَلَقَدْ يَسْرَنَ الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾

للمرة الرابعة والأخيرة في السورة يتكرر هذا النشيد الرحماني، بعد أن مررنا بالماء والريح والصيحة والحاصب، وكأن التكرار قد بلغ تمام الحجة: أيها الإنسان، كم مصرعاً تحتاج لكي تستيقظ؟ وكم صورة من صور النهاية ينبغي أن تراها قبل أن تعرف أن القرآن لا يقص عليك أخبار الغابرين إلا ليقطع عنك طريق الغفلة؟

جاءت الآية نفسها دون تغيير، لكن القلب الذي يسمعها لم يعد هو القلب الذي سمعها أول مرة؛ فقد مرّ على قوم نوح وعاد وثمود ولوط، ورأى أن التكذيب يستطيع أن يلبس هيئة السخرية، أو الغرور بالقوة، أو التمرد على القسمة، أو الاستسلام للشهوة، لكن نهايته واحدة: انكشاف الوهم عند مستقر الأمر. وهكذا يظل لفظ الآية ثابتاً بينما يتسع معناها بما تراكم قبلها، كالنهر نفسه يمر بأرض بعد أرض فيحمل من ظلالتها إلى القارئ ما لم يكن يحمله عند المنبع.

والقرآن ميسر للذكر، لكن قوم لوط اختاروا أن ييسروا للهوى لغته ومبرراته وطرقه؛ وهنا يقف الإنسان بين تيسيرين: تيسير رباني يفتح له طريق العودة، وتزوين شيطاني يجعل الانحدار سهلاً في أوله. الفرق أن طريق القرآن قد يحتاج في بدايته مجاهدة النفس، لكنه ينتهي إلى الطمأنينة، أما طريق الشهوة فيبدأ بلذة مستعجلة ثم ينتهي إلى عذاب مستقر.

﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾؟ هل من قارئ يحفظ فطرته قبل أن تُطمس؟ هل من إنسان يفهم أن الرحمة بالناس لا تعني مباركة ما يهلكهم، وأن الثبات على الحق لا يبيح القسوة عليهم؟ هل من مجتمع يحمي الأسرة والطهر وحرمة الجسد، ويفتح للعاصي باب التوبة، ولا يسمح في الوقت نفسه للمعصية أن تعيد كتابة ميزانه؟

إن السؤال لا يطلب منا أن نحدق في قوم لوط من علي، بل أن نفتش عن كل انقلاب للميزان في أنفسنا؛ فقد لا يقع الإنسان في ذنبهم، لكنه قد يسمي معصيته الخاصة حرية، وقد يطرد من حياته النصيحة لأنها تزججه، وقد يماري بالنذر دفاعاً عن شهوة أخرى. والمطلوب ليس أن يخرج من القصة متفوقاً عليهم، بل أن يخرج خائفاً من قلبه، راجياً رحمة ربه، شاكراً نعمة الهداية، مردداً في أعماقه: لولا أن يثبتني الله، فن ينجيني من نفسي؟

آل فرعون: حين أحاطت النذر بالقصر ولم يدخل النور إليه

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ﴾

تصل السورة إلى مصر الفرعونية، إلى دولة لا تمثل جماعةً منحرفة فحسب، بل منظومة طغيان مكتملة: حاكم يدعي العلو، وملأ يثبتون سلطانه، وجند ينفذون بطشه، وخطاب يزور وعي الناس، واقتصاد وسياسة وخوف تشابك كلها حول مركز واحد. ومع ذلك تختصر الآية أول المشهد في كلمة الرحمة: ﴿جَاءَ﴾؛ فقد جاءت النذر إلى أبوابهم، ولم يتركهم الله أسرى لطغيانهم بلا رسول، بل أرسل موسى وهارون، وأظهر الآيات، وكرر الإنذار، حتى دخل صوت الحق إلى القصر نفسه.

قال: ﴿آلَ فِرْعَوْنَ﴾، ليوسع دائرة المسؤولية؛ فالجريمة لم تكن جريمة فرعون وحده، وإن كان رأسها، بل شاركه من صنعوا له صورة الرب، ومن زينوا قوله، ومن نفذوا أمره، ومن آثروا مصالحهم تحت ظله على نجاة المستضعفين. والطغاة لا يصنعون طغيانهم وحدهم؛ حول كل فرعون شبكة من المنتفعين والخائفين والمبررين، وكل واحد منهم يضيف حجراً إلى الهرم الذي يسحق الناس.

و﴿النُّذْرُ﴾ جمع يشعر بتتابع الآيات؛ العصا، واليد، والسنون، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وكل آية كانت باباً مستقلاً للرجوع. لم تكن المواجهة بين موسى وفرعون معركة إرادتين بشريتين، بل كان فرعون محاطاً بإذارات من جهات شتى، وكلما نزل به البلاء وعد أن يؤمن، فإذا كشف عنه عاد، حتى صار الرجوع عن العهد جزءاً من نظامه النفسي.

إن محيي النذر نعمة، ولو حملت الخوف؛ لأن الخطر الحقيقي ليس أن ينبه الله الإنسان، بل أن يتركه يمضي مطمئناً في طريق هلاكه. الألم الذي يكشف الانحراف قد يكون أرحم من راحة ثبته، والخسارة التي ترد الإنسان إلى ربه قد تكون أعظم نعمة من

ريح يزيده بعداً. لكن آل فرعون أرادوا زوال البلاء دون زوال السبب، وأرادوا النجاة من أثر الطغيان مع الاحتفاظ بالطغيان نفسه؛ وتلك أمنية تتكرر في حياة الأفراد والأمم: أن تتغير النتائج من غير أن تتغير القلوب.

﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٌ﴾

بلغت الحجة تمامها: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾. لم يتركوا لأنفسهم نافذة واحدة يدخل منها النور؛ كلها ظهرت آية أعادوا تسميتها سحراً، وكلها جاءهم إنذار جعلوه عارضاً، وكلها أخذوا عهداً نقضوه. و﴿كُلِّهَا﴾ تكشف شمول الرفض، لا لقصور في الآيات، بل لأن القرار الباطني سبق رؤيتها: ألا يؤمنوا بما يهدم سلطانهم.

والآيات مضافة إلى الله: ﴿بِآيَاتِنَا﴾؛ لم يكن تكذيبهم لموسى باعتباره رجلاً ينافس فرعون على الحكم، بل كان ردّاً لعلامات الله، ولذلك كانت المواجهة أكبر من مقاييس السياسة. حين يجعل الطاغية نفسه المرجع الأعلى، يصبح كل صوت يأتيه من فوق سلطانه تهديداً وجودياً، ولو كان ذلك الصوت يحمل نجاة قومه.

ثم جاءت الفاء التي تطوي زمن المهلة: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ﴾. والأخذ يوحى بأنهم كانوا في قبضة القدرة قبل أن يشعروا، وأن فرارهم لم يكن خروجاً من ملك الله، بل حركة داخل الأرض التي يملكها. كانوا يطاردون موسى وبني إسرائيل وهم يظنون أنهم الآخذون، فإذا بهم المأخوذون؛ ويسوقون جندهم إلى البحر بوصفهم أصحاب القرار، فإذا القرار الحقيقي يسبقهم إلى الموعد.

﴿أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٌ﴾؛ العزيز الذي لا يُغلب ولا يُمنع، والمقتدر الذي بلغت قدرته غايتها ولا يعجزه شيء. واختيار ﴿مُقْتَدِرٌ﴾ أبلغ في إظهار القدرة من قادر، بما في بنائها من امتلاء وقوة؛ وهي الكلمة التي ستعود في خاتمة السورة: ﴿عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾. فالقدرة نفسها التي أخذت المكذبين هي التي تؤمن المتقين؛ تكون على الطاغية قهراً، وعلى الولي حمايةً، ولا يتغير سلطان الله، وإنما يتغير موضع الإنسان منه.

وحين يأخذ العزيز المقتدر تسقط الأقنعة كلها؛ لا ينفع فرعون قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾، ولا جنده، ولا أنهاره، ولا صرحه. كان يملك أن يأخذ أفراداً من قومه فيقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم، فظن أن القدرة التي يمارسها على الضعفاء مطلقة، ثم جاءه أخذ يعرفه الفارق بين قوة مخلوق مؤقتة وقدرة خالق لا حد لها.

وتقف الآية أمام طغاة كل عصر لتقول: إن كثرة الآلات لا تخرجكم من قبضة الله، وإن القدرة على إسكات الناس لا تعني القدرة على إسكات الحقيقة، وإن تأخر الأخذ لا يعني أن العزيز فقد سلطانه. كما تقف أمام المظلوم لتصيح يقينه: لا تجعل خضامة الطاغية في عينيك تحجب عنك اسم ﴿الْمُقْتَدِرِ﴾، ففرعون بدا لبني إسرائيل أكبر من قدرتهم، لكنه لم يكن في ميزان الله إلا مخلوقاً يساق بخطواته إلى الموضع الذي يظهر فيه عجزه.

لقد انتهى آل فرعون، وبقي السؤال الذي يوجهه مصيرهم إلى إنسان اليوم: كم آية يحتاج صاحب السلطة حتى يعرف أن سلطانه عارية؟ وكم إنذاراً تحتاج الحضارة حتى تدرك أن تقدمها لا يمنحها حق سحق الضعفاء؟ وكم مرة ينبغي أن ينشق البحر في التاريخ بين ناجٍ مستضعف وغارق متجبر حتى تتعلم أن القوة التي لا تسجد للحق تحفر، وهي في ذروة صعودها، طريقها إلى الأخذ؟

حين واجه الحاضرُ مرآةَ الماضين

﴿اَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ اُولٰٓئِكُمْ اَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾

بعد أن مرّ موكب المكذبين أمام أعيننا؛ قوم نوح تحت الماء، وعاد تحت الريح، وثمود تحت الصيحة، وقوم لوط تحت الحاصب، وآل فرعون في قبضة العزيز المقتدر، تلتفت السورة فجأةً إلى المخاطبين بها، فتخرجهم من مقاعد المتفرجين، وتضعهم في قلب السؤال: ﴿اَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ اُولٰٓئِكُمْ﴾؟ أيّ خصوصية يتوهمونها حتى يظنوا أن القانون الذي جرى على السابقين سيتوقف عند أبوابهم، وأن التكذيب الذي انتهى بالآخرين إلى الهلاك سيمنحهم هم نجاة مختلفة؟

والخطاب في أصله لكفار مكة، ولكنه يتجاوزهم إلى كل جيل يقرأ قصص المكذبين ثم يعيش مطمئناً كأنها لا تعنيه، وإلى كل أمة تظن أن تقدمها أو نسبها أو ثروتها يمنحها حصانة من سنن الله. إن البشر يميلون إلى الاعتقاد بأن الكوارث نتائج لأخطاء الآخرين، أما أخطاؤهم هم فاستثناءات تستطيع الحياة احتمالها؛ يقرؤون عن سقوط الطغاة ثم يطغون، ويعرفون نهاية المستكبرين ثم يلبسون الكبر باسم الهيبة، ويرون الحضارات تنهار من داخلها ثم يكررون أسباب الانهيار بثقة من يظن أن التاريخ سيجاملهم.

﴿اَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ اُولٰٓئِكُمْ﴾؟ هل هم أشد أجساماً من عاد، وأمنع حصوناً من ثمود، وأكثر ملكاً من فرعون، وأطول مهلةً من قوم نوح؟ وإذا لم تنفع أولئك قوتهم، فمن أين جاء هؤلاء بوهم النجاة؟ ليس في السؤال مقارنة بين الفضائل، وإنما هو تقرير يكشف أن اللاحقين لم يأتوا بسبب واحد يجعل التكذيب في حقهم أقل قبحاً أو عاقبته أبعد وقوعاً. ثم يفتح السؤال منفذاً آخر لا يستطيعون المرور منه: ﴿اَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾؟ هل نزل في الكتب الإلهية عهدٌ يعفيكم من الحساب؟ وهل كتب الله لكم وثيقة أمان تبيح لكم ما لم تبحه للأمم السابقة؟ إن النجاة لا تُنال بالتقني، ولا بالأسماء الموروثة، ولا بالانتساب

المجرد، بل بإيمان يصدقه العمل ورحمة من الله. ومن لم يجد براءة في كتاب الله، فبأي شيء يطمئن إلى مخالفة أمره؟

و﴿الزُّبُرِ﴾ هي الكتب؛ أي أفي الكتب المنزلة نص يمنحك هذا الاستثناء؟ وفي السؤال ردُّ على كل تدين شكلي يصنع لصاحبه حصانة موهومة؛ فقد يحمل الإنسان اسم الإسلام، وينتمي إلى أمة القرآن، ويتكلم بلسان الإيمان، ثم يعيش بمنطق من كذبوا النذر، ويظن أن الاسم وحده براءة مكتوبة له. لكن القرآن لا يمنح أحداً صك أمان مع الإصرار على الظلم، فالانتساب إلى الحق لا ينبغي مناقضه، كما أن الوقوف بجوار السفينة لا ينبغي من لم يركبها.

وما أحوجننا إلى أن نقلب السؤال على أنفسنا: أنحن خير من أولئك مع أن الوحي الذي وصل إلينا أوضح، والعبر التي تراكت بين أيدينا أكثر، والقرآن محفوظ نقرأه كل يوم؟ أم لنا براءة لم تنزل في كتاب، اخترعناها من رضا النفس عن نفسها؟ إن الأمة التي تظن أن ماضيها الصالح يعني حاضرها من المحاسبة لم تفهم معنى التاريخ القرآني؛ ففضل السابقين حجة تدعو إلى الاقتداء، لا ستاراً يحمي اللاحقين من نتائج الانحراف.

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ﴾

إذا لم تكن لهم فضيلة تجعلهم خيراً من السابقين، ولا براءة مكتوبة تعفيهم من المصير، فرمما كان اعتمادهم على قوة اجتماعهم: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ﴾. هكذا يتحدث الباطل حين يرى نفسه حشداً؛ يظن أن تراكم الأجساد يمنحه حصانة، وأن كثرة الأنصار تصنع له الحقيقة، وأن الفرد المؤمن الذي يقف أمامه لا يملك إلا أن يذوب تحت ضغط الجماعة.

قالوا: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ﴾، فجعلوا الاجتماع نفسه دليل القوة، ولم يسألوا: على أي شيء اجتمعنا؟ فالجماعة لا تطهر من الباطل لجرد أن أفرادها كثر، والصف لا يستقيم لأن رجاله متلاصقون ما دامت وجهته منحرفة. قد يجتمع الناس على خوف، أو مصلحة، أو عصبية، أو كراهية للحق، فيبدو اجتماعهم صلباً، لكنه يحمل في داخله أسباب تفرقه، لأن الهوى الذي جمعهم مؤقتاً سيقسمهم حين تتعارض الأهواء.

ثم قالوا: ﴿مُنْتَصِرٌ﴾ بالإفراد، مراعاةً للفظ ﴿جَمِيعٌ﴾ وكأنهم جسد واحد متماسك، لكن هذا التماسك الذي صوروه في عبارتهم سيتفكك عند أول تماس مع أمر الله. إن الباطل يجيد عرض صفوفه في أوقات الأمان، أما ساعة الامتحان فتكشف أن كل فرد فيه يبحث عن نفسه، وأن الهتاف الجماعي لم يصنع فيهم قلباً واحداً، وإنما أخفى خوف كل واحد داخل ضجيج الآخرين.

وفي الآية إنذار لكل من يجعل كثرة الأتباع ميزاناً للحق؛ فكم من فكرة باطلة صارت شائعة حتى خُيل لأهلها أن انتشارها برهان، وكم من ظلم مارسه جماعة فشعر كل فرد أن المسؤولية قد ذابت بين الجموع، وكم من إنسان أسكت ضميره لأن الجميع يفعلون الشيء نفسه. لكن كلمة ﴿نَحْنُ﴾ لا تحو سؤال الفرد يوم القيامة، وكلمة ﴿جَمِيعٌ﴾ لا تحول الباطل إلى حق، والاجتماع الذي لا يقوم على العدل قد يكون تجمعاً للهزيمة لا عدة للنصر.

﴿سَيُزِمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾

يأتي الجواب بصيغة المستقبل الواثقة: ﴿سَيُزِمُ الْجَمْعُ﴾. نزلت الآية والمسلمون مستضعفون في مكة، والجمع المشرك يملك المال والعدد والسلطان، حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يتساءل: أي جمع سيُزِم؟ ثم جاء يوم بدر فرأى الوعد يتحول إلى مشهد، وسمع النبي ﷺ يتلو الآية وهو خارج إلى المعركة، فعرف المؤمنون أن كلمات الوحي لم تكن تعزية غامضة، بل خبراً من الله سبق الحدث ورسم نهايته.

والتعبير لا يقول: سيختلف الجمع أو يضعف، بل ﴿سَيُزِمُ﴾؛ والهزيمة كسر للتماسك النفسي قبل أن تكون تراجعاً في المكان. كانوا يقولون: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ﴾، فجاء الرد باللفظ نفسه: ﴿سَيُزِمُ الْجَمْعُ﴾، ليكون موضع غرورهم هو موضع انكسارهم؛ فبا تفاخروا به لم يُجهم، بل ذكر عند سقوطهم شاهداً على أن الكثرة كانت صورة بلا مدد من الله.

﴿وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾؛ يرسم القرآن الحركة التي ستقع: وجوه كانت مقبلةً بكبرياء تتحول، وظهور تُرى وهي تفر، وأقدام كانت تتقدم للبطش تبحث عن طريق النجاة. والإفراد في

﴿الدُّرِّ﴾ يصورهم كأنهم ككلة واحدة ولّت، في مقابلة قولهم: ﴿جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾. لقد أرادوا أن يكونوا جمعاً في النصر، فصاروا جمعاً في الفرار.

وهذه الآية تربي المؤمن على ألا يحكم على الوعد من خلال موازين اللحظة؛ فقد يكون الجمع أمامه متراصاً، ويكون هو قليلاً محاصراً، لكن الله يرى نقطة الانكسار التي لا يراها، ويعلم كيف تتحول الجموع إلى ظهور مويّة. وليس معنى ذلك أن يهمل المؤمن الأسباب أو يكتفي بالأمامي، فقد أعد رسول الله ﷺ لبدر ما استطاع، ورتب الصفوف، واستشار أصحابه، ودعا ربه، لكن الأسباب كانت جسد العمل، أما الروح التي فيه فكانت اليقين بأن النصر لا يملكه العدد.

وفي كل عصر جموع تتوهم أنها خالدة: منظومات ظلم، وأسواق استغلال، وآلات تضليل، وتحالفات باطل، تبدو للناظر من خارجها محكمة البنيان، لكن الآية لا تسمح للمؤمن أن يمنحها صفة الأبدية. قد يطول زمنها، وقد تثقل كلفتها، لكن كل جمع بناء الباطل يحمل موعد هزيمته في داخله، لأن ما خالف ميزان الله قد يهمل، لكنه لا يتحول بالإمهال إلى حق.

﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرٌ﴾

حتى هزيمة بدر ليست النهاية؛ إنها علامة في الطريق، أما الموعد الجامع فهو الساعة: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾. قد يهزم جمع في الدنيا ثم يموت بعض أفرادها على فراشه، وقد يفلت ظالم من محكمة الأرض، وقد لا يرى المظلوم اكتمال القصاص في حياته، ولذلك لا يجعل القرآن النصر الدنيوي خاتمة العدالة، بل يرفع العين إلى موعد لا يفلت منه أحد.

﴿مَوْعِدُهُمْ﴾؛ موعد محدد لا يضيع، وإن جهل الخلق زمنه، ولا يتقدم ولا يتأخر عن العلم الذي كتبه الله. والموعد يوحي بأن الساعة ليست احتمالاً مبهماً، بل لقاء مقررًا تسير إليه البشرية كلها، سواء آمنت به أم أنكرت. إنكار الموعد لا يلغيه، كما أن المسافر الذي يمزق تذكرته لا يوقف حركة القطار الذي يحمله.

ثم كرر الاسم: ﴿وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ﴾، ولم يضمه فيقول: وهي أذهى؛ ليعيد وقع الكلمة على القلب، وليجعل الساعة حاضرة بلفظها مرتين في آية واحدة. افتتحت السورة بقوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾، وها هي تعود قرب نهايتها موعداً ودهاءً ومرارة، فتحيط بقصص الأمم من أولها وآخرها؛ كل تلك المصارع صور مصغرة للعاقبة الكبرى، وكل عذاب دنيوي ظل بعيد لذلك اليوم.

و﴿أَذْهَى﴾ أي أعظم داهيةً وأشدَّ هولاً، لأنها لا تهدم مدينة أو تهزم جمعاً فحسب، بل تطوي العالم الذي عرفه الإنسان كله. و﴿أَمْرٌ﴾؛ أشدَّ مرارةً على من كذب، لأن مرارات الدنيا تنتهي بالموت، أما مرارة الآخرة فتبدأ بعده، ولأن ألم الدنيا قد تصحبه غفلة أو إغماء أو أمل في النجاة، أما هناك فتتكشف الحقيقة كاملة ويجتمع ألم الجسد مع حسرة الروح.

إن الإنسان يستطيع أن يخفف وقع هزائمه الدنيوية بإعادة تفسيرها، وأن يسمي الخسارة انتصاراً في خطاب إعلامي، وأن يخفي عدد القتلى، وأن يصنع رواية تحفظ ماء وجهه، لكن الساعة لا تسمح بتحرير رواية بديلة؛ هناك تتكلم الأعمال، وتشهد الجوارح، وتظهر الصحف، ولا يبقى للإنسان إلا الحقيقة التي صنعها بيديه.

ولهذا لا ينبغي للمؤمن أن يختصر الآخرة في وسيلة لتعويض عجزه عن الحياة، بل يراها الضمان الأكبر للمعنى والعدل؛ فلو كانت الدنيا هي المحكمة الأخيرة لكانت دماء كثيرة قد ذهبت بلا قصاص، وقلوب كثيرة انكسرت بلا جبر، وطغاة كثيرون أفلتوا بما نهبوا. أما الساعة فتقول لكل مظلوم: لم تنته قضيتك، ولكل ظالم: لم تنته مهلة حسابك، ولكل مؤمن: لا تبع الحق لأن جولةً لم تجر كما تمنيت.

من ضلال القلب إلى سعي المصير

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾

بعد أن أعلنت السورة أن الساعة موعدهم، تكشف حال المجرمين فيها، لكنها تبدأ بما كانوا فيه قبل دخول النار: ﴿فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾. الضلال ليس مجرد خطأ نظري عابر، بل فقدان للطريق الذي يصل الإنسان بغاية وجوده، والسُّعُر جمع سعي أو وصف لجنون واضطراب شديد؛ فكأن المجرمين عاشوا في الدنيا بين تيه العقل واشتعال الشهوة، ثم ظهر ذلك في الآخرة ناراً تحيط بهم.

وقال: ﴿فِي ضَلَالٍ﴾، فجعل الضلال كالخيز الذي يعيشون داخله؛ يرون العالم من خلاله، ويعيدون تفسير كل آية بما يناسبه، ويسبرون في دروبه وهم يحسبون أنهم أحرار، مع أنهم لا يرون ما وراء جدرانه. الإنسان الضال قد يملك معلومات كثيرة، ويعرف تفاصيل العالم، لكنه يجهل الاتجاه؛ يشبه من يحمل خريطة دقيقة لكل حجر حوله ولا يعرف إلى أين ينبغي أن يذهب.

والإجرام في أصله قطعٌ وانفصال؛ فالجرم يقطع ما أمر الله به أن يوصل، ويفصل الفعل عن مسؤوليته، واللذة عن عاقبتها، والدنيا عن الآخرة. وحين يعيش الإنسان بهذه التجزئة يظن أن اللحظة مستقلة عما يليها، فتأتي السورة لتصل ما قطعه: الضلال هنا يصير سعيراً هناك، والهوى الذي أحرق البصيرة في الدنيا يظهر ناراً تحرق الوجه في الآخرة.

ولا يجوز أن يقرأ المؤمن الآية بطمأنينة من يرى الإجرام بعيداً عنه؛ فكل معصية تُصر عليها النفس تفتح فيها مقداراً من الضلال، وكل شهوة تتضخم بلا ضبط توقد فيها سعيراً، وكل ظلم صغير يُبرر يهئ القلب لظلم أكبر. النجاة تبدأ من خوف الإنسان من البذرة، لا من انتظاره حتى تصبح غابة من النار.

﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُقُوا مَسَّ سَقَرٍ﴾

من ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ إلى ﴿يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ﴾ يتدرج مشهد الإهانة؛ كانوا يمشون في الدنيا مختارين إلى شهواتهم، ثم خرجوا من الأحداث مسرعين مضطرين، ثم صاروا يُسحبون على وجوههم. والوجه موضع الكرامة والتعريف، يحمل ملامح الإنسان التي يلقي بها الناس، وقد كان المتكبر يرفعه عليهم، فإذا به يسحب عليه في النار؛ جزاءً وفاقاً لمن رفض أن يضع وجهه لله ساجداً فصار وجهه موضع الذل.

والفعل مبني للمجهول: ﴿يُسْحَبُونَ﴾، لترك الرهبة محيطة بالفعل نفسه، وليظهر تمام فقدهم للقدر؛ لا يسألون إلى أين، ولا يختارون كيف، ولا يملكون التوقف. في الدنيا كانوا يتحدثون عن الحرية وهم أسرى لأهوائهم، أما هناك فيظهر الأسر الذي صنعتته اختياراتهم، وينتهي وهم السيادة على النفس إلى عجز كامل عن حماية الوجه.

﴿فِي النَّارِ﴾، لا على حاققتها؛ فهم داخلها محاطون بها، ثم يقال لهم: ﴿ذُقُوا مَسَّ سَقَرٍ﴾. وجاء ﴿مَسَّ﴾ مع أن العذاب عظيم، وفي ذلك تهويل؛ فإذا كان مجرد مس سقر بهذا الهول، فكيف بالإحاطة والمقام؟ وقد يكون التعبير على سبيل التهكم المرّ بمن استهانوا بالعذاب، كأن الذي سموه وهماً صار الآن تماًساً لا يملكون إنكاره.

و﴿سَقَرٍ﴾ اسم من أسماء جهنم، يحمل في جرسه القسوة والاحتراق، ويستدعي ناراً لا تبقي ولا تذر. والأمر بالذوق لا يعني مجرد إحساس عابر، بل إدراكاً مباشراً لما كانوا يكذبون به. لقد رفضوا علم الوحي، بجفاءهم علم الذوق؛ لكن الأول كان يفتح باب النجاة، والثاني يأتي بعد إغلاقه.

إن تصور هذه الآية ليس غايةً قائمةً بذاتها يراد منها ترهيب الإنسان بلا أمل، بل هو رحمة مبكرة؛ فالقرآن يعرض المصير الآن، والعبد قادر على أن يغير طريقه، ويخبره بالسحب وهو ما يزال يمشي مختاراً، ويحدثه عن النار وماء التوبة لا يزال قريباً. من رحمة الله أن جعل الخبر عن العذاب سابقاً للعذاب، وأن أسمع القلب كلمة ﴿ذُقُوا﴾ في الدنيا حتى لا يسمعها خطاباً مباشراً في الآخرة.

القدر: حين يستقر الكون كله في ميزان الحكمة

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾

بعد مشاهد القيامة والنار تأتي هذه الآية كقاعدة تحيط بالكون كله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾. ليس الطوفان فوضى، ولا الريح انفلاتاً، ولا الصيحة مصادفةً، ولا نجاة آل لوط اتفاقاً، ولا هزيمة الجمع حادثاً خرج من العدم؛ كل شيء داخل في علم الله وتقديره وحكمته، من حركة الأجرام إلى سقوط الورقة، ومن أعمار الأمم إلى النبضة الخفية في قلب إنسان.

﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾؛ لا توجد زاوية في الوجود خارج هذا الإحكام، ولا كائن وُلد سهواً، ولا حدث أفلت من العلم الإلهي، ولا مقدار زاد أو نقص لأنه غاب عن الحساب. والقدر هنا يجمع التقدير بمعنى الإحاطة السابقة، والتقدير بمعنى إعطاء الأشياء مقاديرها وصفاتها وأزمنتها وحدودها؛ فالقمر بقدر، وانشقاقه بقدر، والماء بقدر، والريح بقدر، والساعة لها موعد مقدر، والإنسان نفسه خلق في زمن ومكان وقدرات وابتلاءات لم تجتمع عبثاً.

لكن الإيمان بالقدر لا يحول الإنسان إلى حجر معطل الإرادة؛ فالقرآن نفسه خاطب المكذبين، وأنذرهم، وأمرهم، ولاهم على اتباع أهوائهم، ونسب إليهم أفعالهم، ثم أخبر أن كل شيء بقدر. إن إرادة الإنسان حقيقية خلقها الله، واختياره واقع داخل سلطان الله لا خارجاً عنه، وهو مسؤول لأنه يعلم ويميل ويعزم ويفعل، لا لأنه مستقل عن خالقه. والقدر سر الله في خلقه، لا حجة يتدفع بها العاصي قبل الذنب ثم ينسى الاحتجاج بها حين يطلب لذته أو مصلحته.

والآية دواء لقلق الإنسان الذي يظن أن العالم قد خرج عن السيطرة؛ فقد تضطرب أمامه الأحداث، وتقاطع الخسارات، ويعجز عن فهم الحكمة، لكن عجزه عن رؤية النظام

لا يعني غياب النظام. الطفل يرى يد الطبيب تؤلمه ولا يرى علمه، والإنسان يرى قطعة صغيرة من نسيج القدر ولا يرى الصورة التي يعلمها الله كاملة. ليس مطلوباً منه أن يفهم سر كل شيء حتى يطمئن، بل أن يعرف من الذي قدر، وأن القدر صادر عن علم حكيم رحيم لا يظلم.

وكم يحتاج إنسان العصر إلى هذه الآية؛ فهو يعيش بين وهمين: وهم السيطرة المطلقة الذي تمنعه به التقنية، وهم الفوضى المطلقة حين تنهار خططه. فإذا نجح ظن أنه صنع العالم وحده، وإذا فشل ظن أن الوجود بلا حكمة؛ فتأتي ﴿بِقَدَرٍ﴾ لتضعه في موقعه الصحيح: اعمل بكل ما تستطيع، فعملك جزء من القدر، لكن لا تعبد قدرتك؛ واصبر إذا وقع ما لا تريد، فالحدث لم يقع في فراغ، واطلب من الله أن يريك عبوديتك فيه وإن خفيت عليك حكمته.

وفي ضوء الآية لا يكون المؤمن مستسلماً للظلم بدعوى القدر؛ فمقاومة الظلم قدر، ونصرة المظلوم قدر، والدعاء قدر، وبناء السفينة قدر، وخروج آل لوط في السحر قدر. نوح لم يقل: إن كان الطوفان مقدراً فلا حاجة إلى الألواح، وموسى لم يقف أمام البحر منتظراً بلا حركة، بل أطاعاً؛ لأن القدر لا نعرفه قبل وقوعه، أما التكليف فنعرفه، وعبوديتنا أن نسير في نور التكليف ثم نسلم النتيجة لرب التقدير.

﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾

إذا أراد الله شيئاً لم يحتاج إلى معالجة ولا تدرج ناتج عن عجز، ولم تعترض قدرته مسافات أو أدوات؛ ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ﴾. كلمة واحدة من الأمر الإلهي تكفي لينتقل المقدّر من الغيب إلى الشهادة في الزمن الذي أراده الله، فلا تكرر بسبب فشل، ولا محاولة تعقبها محاولة، ولا قوة تقاوم الأمر حتى يحتاج إلى مدد.

﴿كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾؛ واللمح أسرع حركة العين ونظرها الخاطف، فجاء التشبيه بما يعرفه الإنسان من السرعة ليقرب إليه معنى نفاذ الأمر، لا ليحصر قدرة الله في زمن الحركة البشرية. ما يراه الإنسان محتاجاً إلى قرون من الأسباب يمكن لأمر الله أن تظهر نتيجته في

اللحظة المقررة بلا تأخر، وما يظنه بعيداً لأن مقدماته لا تبدو له حاضراً في العلم الإلهي مكتمل الشروط.

وفي هذه الآية تفسير لسرعة المشاهد في السورة؛ انشقاق، إغراض، نفروج من الأحداث، ثم طوفان وريح وصيحة وحاصب وأخذ، كأن الإيقاع كله يترجم معنى ﴿وَاحِدَةً كَلِمَتًا بِالْبَصَرِ﴾. لا تمنح السورة الغافل وقتاً طويلاً بين الإنذار والمصير، لأن الزمن حين يأتي أمر الله ينطوي، ولأن الإنسان الذي استبطأ الساعة قد يكشف أن المسافة بينها وبينه لم تكن إلا لحظة.

وهذا يزرع في المؤمن رجاءً لا تحده ضخامة العقبات؛ فالله لا يحتاج إلى أن يتوازن القوى في الظاهر حتى ينصر الحق، ولا إلى أن تكتمل التصورات البشرية للحل قبل أن يفتح بابه. قد تأتي الإجابة من جهة لم تدخل في الحساب، وقد يتغير الموقف الذي بدا جامداً في لحظة، وقد يولد الفرج من قلب السبب الذي ظنه الناس خاتمة الأزمة. لكن الرجاء ليس ادعاءً لموعده لم يخبر الله به؛ نثق بقدرته المطلقة، ونسلم لحكمته في توقيت ظهور أثرها.

كما تزرع الآية خوفاً في نفس الطاغية؛ فالاستقرار الذي يتمتع به لا يثبت أن سلطانه عصي على الزوال، وقد تكون بينه وبين سقوطه كلمة الأمر الواحدة. إن بناء الظلم يحتاج إلى سنوات ومؤسسات وجنود، لكن هدمه لا يحتاج عند الله إلى مثل ذلك؛ ﴿كَلِمَةً بِالْبَصَرِ﴾، فيتحول القصر خبراً، والجمع دبراً، والطاغية عبرة في كتاب.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مَدَكِرٍ﴾

لا يقول: أهلكنا أمماً لا صلة لكم بها، بل ﴿أَشْيَاعَكُمْ﴾؛ أشباهكم ونظراءكم ومن كانوا على طريقكم في التكذيب. وهذه الكلمة تهدم المسافة النفسية التي يحاول القارئ أن يضعها بينه وبين الماضين؛ فالقراءة الحقيقية ليست قرابة الزمان أو الدم وحدهما، بل قرابة المنهج. من سار في طريق قوم نوح في التكذيب فهو من أشياعهم وإن عاش بعدهم بآلاف السنين،

ومن استعلى كعاد فهو من شيعتها، ومن عقر حدود الله كشمود لحق بطريقها، ومن طغى كفرعون حمل من نسبه المعنوي بقدر ما حمل من صفته.

﴿أَهْلَكَا أَشْيَاعَكُمْ﴾؛ والفاعل هو الله، فلا لبس في مصدر القدرة، ولا مجال للظن أن السابقين هلكوا لأن أدواتهم كانت قديمة فحسب، وأن اللاحقين ستنجيهم أحداثهم. قد تختلف الأسباب الظاهرة، لكن السنة التي تحكم المصير لا تشيخ؛ فالظلم يفسد العمران، والترف إذا انفصل عن الشكر ينخر الإرادة، والتكذيب يعمي البصيرة، والاستكبار يمنع مراجعة الخطأ حتى يصير السقوط أقرب من الاعتراف.

ثم يعود السؤال للمرة الخامسة في المعنى وإن كانت صيغة التيسير قد تكررت أربعاً: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾؟ وبعد أن اكتمل معرض التاريخ، صار السؤال أشد مباشرة: لقد أهلكا أشباهكم، فهل تريدون أن تظلوا أشباههم في المصير، أم تقطعون هذه القرابة بالتوبة؟ إن الإنسان لا يختار أسلافه في النسب، لكنه يختار أشياعه في المنهج، وكل قرار أخلاقي يتخذه يضعه في موكب من موكب التاريخ؛ إما موكب من آمنوا وصبروا، وإما موكب من كذبوا واتبعوا أهواءهم.

والتذكر المطلوب ليس خوفاً مؤقتاً يزول بانتهاء التلاوة، بل تغييراً في النسب الروحي؛ أن يرى المرء في نفسه سمة من سمات المالكين فينزعها، وأن يجد أثراً من الكبر فيكسره، وأثراً من الشهوة المنفلتة فيضبطه، وأثراً من ظلم فرعون في سلطته الصغيرة فيتوب منه. فرب إنسان يلعن فرعون وهو فرعون في بيته، ويستنكر عقر الناقة وهو يعتر حقوق الآخرين، ويسخر من قوم نوح لأنهم لم يركبوا السفينة وهو يرفض سفينة القرآن كل يوم.

الكتاب الذي لا تسقط منه حركة

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾

بعد أن قرر القرآن أن كل شيء خُلق بقدر، يقرر أن كل فعل بشري محفوظ في كتاب: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾. فالدور ليس فوضى تُسقط المسؤولية، والكتاب لا يترك أفعال المكلفين تضيق في زحام الزمن. ما فعلوه لم ينته بانتهاء لحظته، بل انتقل من عالم الحركة إلى عالم التسجيل، ومن قدرة الإنسان على الإنكار إلى سجل لا يجامل.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ﴾؛ لا الأقوال الكبرى والجرائم الظاهرة وحدها، بل كل ما دخل في دائرة الفعل: كلمة قيلت، ونظرة أطلقت، وحق حُبس، ورحمة مُنحت، وخطوة سارت إلى طاعة أو معصية. قد ينسى الفاعل لأنه عبر آلاف الملاحظات بعدها، لكن التسيان البشري لا يحو الكتاب الإلهي، وقد يستصغر فعلاً لأن الناس لم يروه، لكن خفاه عنهم لا يخرجهم من العلم.

و﴿الزُّبُرِ﴾ هنا الكتب التي كُتبت فيها أفعالهم؛ وما أشد المناسبة بينها وبين ﴿أَمْ لَكُمْ بُرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾: لم يجدوا في الكتب براءة تعفيهم، لكنهم سيجدون فيها أفعالهم التي تدينهم. كانوا يبحثون عن نص يضمن لهم النجاة بلا إيمان، فإذا الكتاب الذي تمنوا أن يكون وثيقة إعفاء صار سجل إثبات.

وهذه الآية تحرر الإنسان من وهم الإفلات؛ فقد بنجح في حذف أثره من شاشة، أو إسكات شاهد، أو شراء ذمة، أو إعادة كتابة التاريخ، لكنه لا يستطيع الدخول إلى الزبر التي تحفظ عمله. كما تمنح المظلوم طمأنينة: ما فعل بك لم يضع، ودمعتك ليست رقماً تلاشى في كثرة المآسي، والكلمة التي جرحتك مكتوبة، وصبرك عليها مكتوب، والعدل الذي لم تجده في الأرض محفوظ عند من لا ينسى.

لكن المعنى لا ينبغي أن يحول حياة المؤمن إلى رعب مرضي من التفاصيل، بل إلى مراقبة محبة ومسؤولية؛ فالذي يكتب السيئة يكتب الحسنة، والذي لا ينسى الظلم لا ينسى ابتساماً جبرت قلباً، ولا لقمة أعطيت في خفاء، ولا لحظة قاوم فيها العبد شهوته ولم يعلم به أحد. الكتاب الكامل ليس تهديداً للأشرار وحدهم، بل بشارة لكل خير صغير خاف صاحبه أن يضيع.

﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ﴾

تأتي الآية فتسد آخر منفذ لوهم النسيان: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ﴾. ما صغر في عينك أو كبر، وما استهان به المجتمع أو عظمه، وما فعلته مرة أو جعلته مشروع عمر؛ كله مسطور مكتوب في سطور لا تختلط ولا تحي إلا بما شرعه الله من توبة ومغفرة.

بدأ بالصغير لأنه موضع الغفلة؛ فالإنسان يتحرز من الجريمة التي تهدم صورته، لكنه يسمح للصغائر أن تسفل لأنها لا تثير في نفسه إنذاراً كبيراً، حتى تتكاثر كقطرات اجتمعت فصنعت طوفاناً. ورب ذنب كبير بدأ بإذن صغير من الضمير، ورب ظلم واسع بدأ بجمالة عابرة للظالم، ورب قسوة مستقرة بدأت بكلمة قال صاحبها: إنها لا تعني شيئاً.

ثم قال: ﴿وَكَبِيرٍ﴾، فلا عظمة الظالم تعمي كبريته، ولا اتساع الجريمة يجعلها أكبر من قدرة السجل، ولا كثرة ضحاياها تحولهم إلى أرقام تضيع. كل قطرة دم لها اسم، وكل حق مسلوب له صاحب، وكل أمة أبدت محفوظة تفاصيلها عند الله، وإن عجزت المحاكم البشرية عن جمع ملفاتها.

و﴿مُسْتَطَرٌّ﴾ كلمة ترسم الكتابة في سطور مرتبة؛ لا فوضى في السجل، ولا تشوش في الأدلة، ولا احتمال أن ينسب فعل إلى غير فاعله. وفي بنائها جرس يشعر بالثبات، كأن الفعل بعد أن كان لحظة متحركة استقر سطرًا ينتظر يوم القراءة. ومن هنا تتصل الآية بقوله: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ﴾؛ فالأعمال تستقر في الكتب، ثم تستقر عند نتائجها.

وفي عصر يسجل فيه الإنسان خطواته وصوره ورسائله في ذاكرات رقمية، يستطيع أن يقترب قليلاً من معنى أن يكون الأثر محفوظاً، لكنه مهما اتسعت تقنيته لا تسجل نية

القلب، ولا تعرف الصراع الذي سبق الفعل، ولا تميز دمة الإخلاص من دمة التمثيل. أما كتاب الله فيحيط بالظاهر والباطن، ويزن الفعل بحجمه الحقيقي، ولذلك لا يظلم عنده من خفي إحسانه، ولا يخجو من أتن إخفاء إساءته.

فليستصغر الإنسان حسنته حتى يتركها؛ فإن الصغير مستطر، ولا يستصغر سيئته حتى يصر عليها؛ فإن الصغير مستطر. وكم من كلمة عابرة رفعت صاحبها لأنه قالها في وقت احتاج إليها قلب، وكم من كلمة حسبها هينة هوت به لأنها هدمت إنساناً أو زينت ظلاماً. الكتابة الإلهية تعيد القيمة إلى التفاصيل التي نمر عليها، وتجعل الحياة كلها ميداناً للمعنى، فلا توجد لحظة محايدة تماماً ما دام القلب يستطيع أن يتوجه بها إلى الله.

من انشقاق القمر إلى مقعد الصدق

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾

بعد النار والكتب والقدر، تفتتح السورة فجأةً على المشهد الذي كانت كل النذر تقود إليه: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾. لم تكن القصص المتتابعة تريد أن تحبس القلب في الخوف، بل أن توصله سائماً إلى هنا؛ إلى الجنان بعد الأحداث، وإلى النهر بعد الطوفان المهلك، وإلى السكينة بعد الريح الصرصر، وإلى الحياة بعد أن صار المكذبون كهشيم المحتظر. قال: ﴿الْمُتَّقِينَ﴾، والتقوى هي أن يجعل الإنسان بينه وبين سخط الله وقايةً من الإيمان والطاعة، وأن يعيش يقظاً لحدوده، لا معصوماً من الخطأ، بل سريع الرجوع إذا أخطأ. المتقي ليس مخلوقاً لم يعرف شهوةً ولا ضعفاً، وإنما عبد عرف ربه فصار خوفه منه حارساً لحرته من الهوى، ورجاؤه فيه مانعاً له من اليأس، ومحبهته له قوةً تعيد ترتيب الأشياء في قلبه.

وما أجمل أن تأتي الجنة جزاءً للتقوى؛ فقد عاش المتقي في الدنيا يضع الحدود لرغباته، لا لأنه يكره الحياة، بل لأنه يعرف حياةً أوسع، ففتح الله له في الآخرة فضاءً لا يحتاج فيه إلى مقاومة محرّم، ولا يخاف زوال نعمة، ولا يتألم من صراع النفس. ضيق على هواه لحظات، فوسّع الله له الأبد، وترك شيئاً يقدر عليه ابتغاء وجه الله، فأعطاه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

﴿فِي جَنَّاتٍ﴾؛ لم يقل عند جنات أو يرون جنات، بل هم داخلها محاطون بنعيمها كما كان المجرمون في ضلال وسعر، وكما يُسحبون في النار. إنها مقابلة في حروف قليلة: أولئك في ضلال وسعر، وهؤلاء في جنات ونهر؛ كل فريق أحاط به في الآخرة ما سمح له أن يحيط بقلبه في الدنيا. أحاط المتقي نفسه بذكر الله، فأحاطه الله بالجنة؛ وأحاط المجرم نفسه بسعير الهوى، فظهر سعيره ناراً.

وجاءت ﴿جَنَّتِ﴾ بالجمع إيذاناً بتعدد ألوان النعيم واتساعها، فلا جنة واحدة محدودة الصورة، بل بساتين ومنازل ومراتب وبهجات تتجدد، كأن كل أمنية طاهرة عجزت الدنيا عن حملها وجدت هناك عالمها. أما ﴿نَهَرٍ﴾ فجاء مفرداً جنساً يشمل الأنهار، أو دالاً على السعة والضياء، ماء يجري لا يغرق كما أغرق قوم نوح، بل ليحمل الحياة والصفاء والطمأنينة.

وما بين ماء الطوفان وماء الجنة تاريخ الاختيار الإنساني، الماء واحد في أصله خلقه الله، لكنه هناك كان عذاباً على المكذبين ونجاةً للسفينة، وهنا صار نهراً للمتقين. ومن أطاع الله لا يخاف من جنود الله؛ فالعناصر التي تهلك غيره تكون له باباً إلى الرحمة، والكون الذي يشهد على سقوط المعاندين يفتح في الآخرة حداثته لمن اتقى.

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾

هنا تبلغ السورة ذروتها، ولا تختم بوصف الثمار والقصور، بل بالقرب: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾. إن أعظم نعيم الجنة ليس ما فيها فحسب، بل عند من تكون؛ فالقلوب التي عرفت الله في الدنيا كانت تبحث وراء كل نعمة عن المنعم، فلما وصلت لم يكن تمام كرامتها في الجنان والأنهار وحدها، بل في مقام القرب والرضوان.

﴿مَقْعَدٍ﴾؛ لفظ يحمل الراحة والاستقرار بعد طول المسير. في الدنيا كان المؤمن في حركة مجاهدة، ينتقل بين فتنة وفتنة، ويحرس قلبه من الريح والصيحة والحاصب المعنوي، ويبنى سفينته وسط السخرية، ويغادر ما يجب إذا دعاه الله إلى الخروج، أما الآن فقد وصل إلى المقعد؛ لا خوف من طرد، ولا قلق من تغير، ولا انتظار لعدو، ولا خشية من انقلاب قلب.

وهو ﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾؛ صدق في ذاته، لا وهم فيه ولا زوال، وصدق في الوعد الذي أوصل إليه، وصدق في السرور الذي لا تخالطه مرارة، وصدق في الصبغة التي لا تحمل غدراً، وصدق في الأمان الذي لا يتسلل إليه خوف. كل شيء في الدنيا يعرض عليه

النقص؛ اللذة يعقبها فتور، والاجتماع يهدده الفراق، والصحة يقترب منها المرض، أما مقعد الصدق فنعيم يطابق اسمه وحقيقته، لا تغدر صورته بباطنه.

ولعل في إضافة المقعد إلى الصدق إشارة إلى أن طريقه كان الصدق؛ صدق مع الله حين خالفه الناس، وصدق مع النفس حين كشف عيبها ولم يزينه، وصدق في التوبة، وصدق في الصبر، وصدق في حمل الأمانة. من عاش للصور قد يخسرهما عند انكشاف الحقائق، ومن عاش للصدق وجد في الآخرة وطناً اسمه مقعد صدق.

ثم الكلمة التي تذيب في القلب كل شوق: ﴿عِنْدَ﴾. ليست عندية مكانية تشبه قرب المخلوق من المخلوق، تعالى الله عن ذلك، فليس كمثله شيء، وإنما عندية تشريف وكرامة وقرب يليق بجلاله سبحانه. إنها منزلة الرضا والأمان؛ أن يكون المتقي في جوار التكريم الإلهي، قد انتهت الوحشة، وسقطت الحجب، وبلغت الرحلة غايتها.

﴿عِنْدَ مَلِكٍ﴾؛ لم يقل ملك فقط، بل ملك، بصيغة تحمل كمال الملك وسعته وثباته. ملوك الدنيا يملكون بعضاً من الأرض زمناً، ثم يخرجون منها كما دخلوا، ويحتاجون إلى الجند والخزائن والحراس، أما المليك سبحانه فله الملك كله، لا يزول، ولا ينازعه فيه أحد، ولا يحتاج إلى معين. والعبد الذي كان ضعيفاً في الدنيا، ربما طرده قومه وزجره وسخروا منه، صار عند المليك؛ فأى شيء فقداه بعد ذلك، وأى مقام يساوي مقامه؟

﴿مُقْتَدِرٍ﴾؛ خُتِمت السورة بالاسم نفسه الذي ظهر عند أخذ آل فرعون: ﴿فَأَخَذْنَا هُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾. القدرة واحدة، لكنها على المكذب أخذ، وعلى المتقي أمان؛ تهزم الجمع الذي قال: نحن جميع منتصر، ثم تكرم الصادق الذي ربما كان وحده في الأرض. والمقتدر الذي فتح أبواب السماء بالماء قادر أن يفتح أبواب الجنة بالرحمة، والذي أرسل الرياح والصبحة والحاصب قادر أن يسكن عن عبده كل خوف، والذي كتب كل صغير وكبير قادر أن يجعل حسنة خفية سبباً لمقعد صدق.

وهكذا نتصل خاتمة السورة بمطلعها اتصالاً يدهش القلب؛ بدأت باقتراب الساعة واشتقاق القمر، وانتهت بالقرب من المليك المقتدر. في البداية انشق جرم السماء، وفي النهاية التأم خوف المؤمن في الأمان؛ في البداية أعرض المكذبون عن الآية، وفي النهاية استقر

المتقون عند رب الآيات؛ في البداية قالوا: سحر مستمر، وفي النهاية انكشف أن الأمر المستقر حقاً هو هذا المقعد الذي لا يزول.

إن المسافة بين ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ و﴿عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ هي مسافة عمر الإنسان كله؛ يبدأ محاطاً بالندر، ثم يُترك له أن يختار: أيبني السفينة أم يسخر منها؟ أيقبل قسمة الماء أم يعقر الناقة؟ أ يخرج في السحر أم يبقى في القرية؟ أخضع للمليك أم يقلد فرعون في وهم الملك؟ ثم ينتهي به الطريق إما إلى سحب على الوجه، وإما إلى مقعد صدق.

فهل من مدكر؟

تغلق سورة القمر أبوابها، لكن سؤالها يظل مفتوحاً في القلب؛ فقد انشق القمر، ولم يكن انشقاقه غاية المشهد، بل سؤالاً عن القلب: هل ينشق غلافه للنور؟ وجرى الطوفان، ولم يكن الماء وحده هو القضية، بل السفينة التي يستطيع الإنسان أن يبنها قبل ارتفاعه؛ وهبت الرياح، لا لتخبنا عن قوم كانت أجسادهم عظيمة فحسب، بل لتسألنا عن الجذور التي تقيم حضاراتنا؛ وصرخت الصبحة في ديار ثمود، لا لتضيف إلى معرفتنا كارثة قديمة، بل لتحذرننا من اللحظة التي يتحول فيها الإصرار الطويل إلى فعلٍ لا رجوع بعده؛ ونزل الحاصب على قوم لوط، ليكشف أن الفطرة إذا حوصرت طويلاً ولم يبق للطهر فيها مكان، فقد بلغ المجتمع طرف الهاوية؛ وأخذ آل فرعون، ليعلم كل سلطان أن القوة عارية، وأن المقتدر لا يترك ملكاً صغيراً يتأله في ملكه.

وفي وسط هذه المصارع لم تكف الرحمة عن النداء: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾. تكررت الآية لأن الإنسان كثير النسيان، ولأن قلبه قد يمر على مصرع كامل ثم يعود إلى غفلته، ولأن الله لا يريد له أن يهلك، فيطرق بابه مرة بعد مرة، ويعيد إليه السؤال بصوت الطوفان، ثم بصوت الرياح، ثم بصوت الصبحة، ثم بعد الحاصب: هل من مدكر؟

ليست النجاة أن نحفظ أسماء الأمم وترتيب عذابها، بل أن نعرف موضعها فينا؛ فنوح حاضر كلما وقف الحق وحيداً أمام السخرية، وعاد حاضرة كلما عبد الإنسان قوته، وثمود حاضرة كلما ضاق الأقوياء بحق غيرهم في الماء والحياة، وقوم لوط حاضرون كلما أُعيد تعريف الفطرة لتوافق الشهوة، وفرعون حاضر كلما ظن صاحب سلطان أنه يملك البشر لأنهم يعجزون عن مقاومته.

وليست الساعة بعيدة لأنها لم تقع بعد؛ إنها تقترب في كل يوم ينقص من أعمارنا، وفي كل وجه نودعه، وفي كل قوة نراها تتحول إلى ضعف، وفي كل قمر يطلع على جيل ثم يطلع

بعده فلا يجد أحداً ممن ظنوا أن الليل لن ينتهي. إننا لا نسير في الزمن بعيداً عن الساعة، بل نسير داخل اقترابها.

ومع ذلك فالسورة ليست ككتاب خوف خالص، بل كتاب نجاة؛ فن وراء مشاهد الهلاك تلوح سفينة، ومن قلب السحر يخرج آل لوط، ومن بعد هزيمة الجمع يقوم الوعد، ومن بعد النار تنفتح الجنات، ومن بعد اضطراب التاريخ يستقر كل شيء في قدر، ومن بعد وحشة الطريق ينتظر المتقي مقعد صدق.

يا أيها القارئ، لست مطالباً أن تعرف موعد الساعة، بل أن تعرف ماذا صنعت لساعتك؛ ولست مطالباً أن توقف انشقاق العالم، بل أن تصلح قلبك قبل أن ينشق عنه غطاؤه؛ ولست مطالباً أن تملك قوة فرعون، بل أن تتحرر من فرعون الصغير الكامن في نفسك؛ ولست مطالباً أن تفهم كل أسرار القدر، بل أن تثق بالمقدّر، وتطيع أمره، وتبني لوحك، وثبت دُسرَكَ، وتمضي.

فإذا هاج الماء، وجرت السفينة بأعين الله، وإذا هبت الرياح على أعجاز النخل، وإذا صاح الداعي نفرج الناس من الأجداث، وإذا ظهر كل صغير وكبير مستطراً، لم يبق للإنسان إلا الموضع الذي صنعه علاقه بالله: إما أن يقول في الحسرة: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾، وإما أن يدخل في سلام المقعد الذي لا يغادره الصدق، عند المليك الذي لا يزول ملكه، والمقتدر الذي لا يعجزه أن يحفظ عبداً ضعيفاً آمن به وسط عالم مكذب:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿١٠١﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿١٠٢﴾﴾.